تقاسيم

على وطنٍ مُنفَرد

تقاسيم على وطنٍ منفرد

تأليف: يحيى علوان

الناشر : دار كنعان
للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

جميع الحقوق محفوظة

دمشق – ص.ب **443** تلفاكس: **2134433** (**11** - **963** +)

E-mail 1: said.b@scs-net.org
E-mail 2: kanaanbook@yahoo.com

الطبعة الأولى: **2012** / عدد النسخ **1000**

إخراج: لبنى حمد

الإشراف العام: سعيد البرغوثي

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها
على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com
http://www.neelwafurat.com

يحيى علوان

تقاسيم

على وطنٍ مُنفَرد

لـيسَ تمييـزاً ضـد بقيـةِ الأوطـان، لكنـه الوحيـدُ فِي الكـون، حتـى اليـوم! فَرادتُـهُ تَتَـأتّى مـن كونـه «تحـرّرَ» محتلاً!! (ي.ع)

بكُلِّ خُشوعٍ ندعوكَ رَبَّنا،
جَنّبنا مَعصِيَةَ الخُنوع!

يحيى علوان

لِمَن أُرضَعتني الحليبَ والوفاءَ دونَ مِنَّةٍ...
لِمَرائِنَ سَكَنتُها فَسَكَنَتني...
وللأُرضِ لا تستأهِلُ الجُحود ولا الخراب.

بمنزلة مقدمة

شَيّعتُ ذيولَ الظُلمَة بجوقَة كمنجات غَجَرية، لا أسرَعَ منها قوسُ باغانيني(*)، مؤمّلاً النفسَ، بعدَ قليلٍ ستُفرِغُ الحياةُ ما بجُعبَتها من نشيد، ولن تعودَ هناكَ مساحةٌ للموازنةِ بين تفاؤل الإرادةِ وتشاؤمِ الذكاء.... ستُطِلُ الحياةُ بثوبٍ جديد..

لكن، بعَثرةٍ فقط، يسبقُ هاجسي خُطوتي.. فإذا به خُلواً من صياحِ ديكٍ، صافيَ الإبهامِ، يطلَعُ صُبحٌ، بلا ضوءٍ باهرٍ، فارغَ الكلمات، مثلَ محارةٍ أسلَمَتْ قيادَها للريحِ والموجِ.... تبحثُ عن لؤلؤةٍ تُزكّي وجودَها ....

مثلَ ضبابٍ، يَهبطُ علَيَّ ضَجَرٌ باهتُ الطعمِ، منقوعاً بظُلمَةِ شُطوطِ الليلِ، يُكذِّبُ ما بكتابِ الطوالعِ عن صُبحٍ بهيٍّ سيشرقُ، يُسقِطُ صَدَأَ العقودِ الغاربة.

.. سأحفرُ بئراً، أدفُنُ فيه سماءاً، كنتُ أُطِلُ من ثقوبها على بلادٍ

(*) باغانيني، عازف الكمان الإيطالي، ذكره إنجلس في «دور العمل في تحوّل القرد إلى إنسان» في مدحه لدور العمل، الذي طوّرَ يدَ القرد لتبلغ الطبيعة واحدةً من ذراها بخلق يد باغنيني الذي كان أمهرَ عازفي الكمان. (ي.ع)

عرِفتُ أرضَهَا، ذرَّةً ذرّة، ورافِداها كُلُّ القَطرِ، أعرِفُ ملحَها حبَّةً، حَبَّة، يجرحُ الأرضَ، فيُوقِظُ القحطَ واليَبابَ.. بلادٌ معابِدُها خلاخيلُ للدِّعَةِ والتأمُّلِ، قِبابُها آنيَةٌ لنجومِ اللّه، وِديانُها، أفواهٌ قابضةٌ على فتنةِ الأسرار...

أينَ هِيَ في هذا الصباح الأغبَر؟!

. . بُشراكَ حياً!

حُرٌ أنتَ الآن... لا بَطَلٌ،

لكَ الخوفُ، لكَ الفرحُ...

لَكَ الرعشةُ وفُضولُ القطَط،

واحدٌ أنتَ الآن.... لا جَمْعٌ مُستَتِرٌ،

لكَ أنْ تبحَثَ عن صمتٍ مشترك،

عن لغةٍ مشتركة.....

لَكَ أنْ تُولَدَ مع كلِّ فكرةٍ حلوة،

ونصٍ بهيٍ، ولحنٍ شجيٍّ، وعملٍ مُبهرٍ،

فافعل بالكلام وبالبيان ما تشاء، رتِّبْ رفوفَ ماضيكَ، بضميرٍ نقي، يخافُ الوخزَ ويتعالى على اللوم... يُمكنُكَ أن تسوحَ به (ماضيك)، أنتَ، الذي غيرَ مرة نجوتَ من حادث حياة. حملَقتَ في عين الموت، ساخراً، كي تبقى واقفاً على قدميكَ، فلا تتحوّل إلى كائن يزحف... من أجل أن تُدافِعَ عن الحق في الهواء، والحق في الهيامِ بزهرةٍ، وحق انخطافِ المُهجَةٍ، تشهقُ لرجفةِ نهدٍ ملمومٍ، نَزِقٍ،

تَنْـزِلُ صـاحبتُه مـن الرصـيف إلــى الـشارع، نهـد يُـدَوِّخُ الـرأس ويُـربِـكُ المُخَيَّلةَ...!!

حُـرٌ أنـتَ الآن... عـاديٌ، يُمكنُـكَ أن تُجلِسَ المخيَّلَةَ فـي حضنكَ، تُسَرِّحُ ضفائرها، حتـى تستسلمَ مطواعةً، بعيـداً عمّـن يتزَيّـا بأحـدث التقليعـات النظريـة..!! ممَّـن قالـوا لـكَ بـالأمس «نحـنُ بـديلُ الـسائد». وحيـنَ انقضَّ الـسائدُ «علينـا»، طـالبوكَ أنـتَ بالنقد الذاتـي، باعتبـارِكَ أفرَطتَ فـي السؤال...!! غـاليتَ حدَّ الخـروجِ عـن حظيرةِ السـائد!

....

الظروفُ ليست ناضجة!... غيرُ ناضجـةٍ هـي الظـروف!!

دعـكَ مـن الاستعارة! سـأرفُسُ ذاكـرتكَ كـي تنفُـضَ المحـاذيرَ.... أُحَفِّزُكَ علـى الـصريح... كـمْ كَذَبتَ علـى نفسكَ؟؟ مـا عُـدتَ بحـاجـةٍ للبحث عـن تـوصيـفٍ آخـرَ لما حولكَ ومـا فـي داخلكَ الدالف...!!

كُنتَ خائفاً من الوقوعِ فريسةً في هـاوية سحيقةٍ مـن «الموضـوعي والـذاتي»، يتعـذّر فيهـا علــى الـديالكتيك أن يـسمع أنينـكَ... عندمــا تطحنُـكَ حادلــةُ «الثانـوي» فتـصكُ أسـنانكَ علـى شـفَتَيكَ خدمــةً لــ «الرئيسي» أو العكس...

سيَّان.... هـي لعبـةٌ تـروحُ فيها بشربةِ مـاء، دون أن تعـرف متـى يتحوّل الضدُ إلـى ضدِّه، كيفَ، ولماذا.....!!

هــيَ شـيزوفرينيا تـصيبُ بـ «ألَـمٍ - شـبح» قـادمٍ مـن لا مكـان، تمامـاً مثلما يحصل لمجنَّدٍ يصابُ بسـاقه، فيواصـل الإحساسَ بالوجـعِ

في الساق، حتى بعد بترِها بسنين.... قد يمُدُّ يده لتحسُّسِ موضعِ الوجع في ساقٍ لم تعُد موجودة أساساً.... وقد يلاحقه الوجع الوهمي - وجع الشبح - إلى آخر العمر.

أما أنتَ، فوجعكَ شديدٌ، شديدٌ.. جداً، جرّاءَ إصابةٍ «فكرية - روحية»... لا وقتَ لأحدٍ كي يداويها أو يواريها، وسط زحام اللحمِ البشري المنثورِ في كلِّ مكان من منبتِ الذكرى....

إلى أينَ ستمُدُّ يدكَ، أنتَ، لتتحسَّسَ موضعَ الوجَعِ...؟!

❖ ❖ ❖

بُشراكَ حيَّاً، نَجَوتَ... لا يحملُكَ الأصدقاءُ ولا الأصدقاءُ - الأعداء، نجوتَ من أكاليل وردٍ رخيصٍ باهتٍ، ومن ثرثرةٍ مبحوحةٍ تدَّعي حُزناً غيرَ أصيلٍ... بُشراكَ، وفَّرتَ على البعض جُهدَ التمثيل الطويلِ لدورٍ حزينٍ لا ينتهي إلاّ بحنُوِّ الأرملَةِ على المُعَزّي.....!!

.....

.....

بُشراكَ حيَّاً، خَلِّ (توفيق الحكيم) أميناً لوصيّته، دون تنقيح... بجنازةٍ وتابوتٍ أنيق الصنعِ، يُطِلُّ منه على المُشيعينَ... يتلذَّذُ بالتلَصُّصِ على طريقتهم في الوقوف، في المَشيِ، في التأفُّفِ وفي تحويلِ اللعابِ

إلـى دمـوع... خَلِّـهِ يـستَمِعْ إلـى كـلامٍ كـثيرٍ... حتـى يَـصرَخُ كـفى، سـيحاولُ العـودة... فلا يستطيعُ....

أنـتَ حـيٌ بالـصدفة، لأنـكَ تكـرهُ أن تَمـوتَ مجّانـاً كأبـي داود[1]، لكـنَّ مـا فيـكَ مـن وفـاءٍ لارتبـاطِ الإطـارِ والفكـرة، حـالَ دون الـذهابِ بالخيبـة إلـى مُنتـهاها. إلـى اسـتبدالِ الإطـار والأداة بمـا يَعِـدُ بتـوازنٍ وانسجامٍ أفضَلْ...!

بُـشراكَ حيًّـا، مـا زلـتَ تعـيشُ بالوقـتِ المـسروقِ مـن «اللَّـوح المحفـوظ»... مـن رصـاصٍ طـائشٍ كـثيرٍ، جاسَـكَ فـي غـيرِ مكـان، إلاّ قلبكَ،... نجـوتَ فـي ساحة السباع وفـي ساحة الميدان، فـي لبنـان وفـي كردستان... نَفذتَ من قلبِ الإعصار!

أتكونُ نجـوتَ لأنَّ المـوتَ لم يتَعَرّفْ عليـكَ؟. كنـتَ تحمـلُ أكثـرَ مـن اسـمٍ، وجـوازاتٍ بعـدة ألـوان، أخـضرَ داكـنٍ وأخـضر فـاتح، أزرَقَ وبـني، أصفـرَ ثـم رمـادي...؟! يَسَّرتْ لـك الحركـة وحتـى الإقامـة فـي بعـض

---

[1] **أبو داود كان نصيراً في قاطع أربيل، فقَدَ عينَه اليمنى خلال عملية اقتحام ربيئة عسكرية، وأصيب بعدة جروحٍ في عملياتٍ أنصارية أُخرى، نَجا فيها مرّات من موتٍ مُحقَّق. لكن الموت لم ينسَ له جسارته، ترصده في شوارع كابول، حيث قضى بحادثٍ مروريٍ سخيفٍ في حزيران 1988، أثناء عبور شارعٍ... طَحَنتَهُ «زيل» - شاحنةُ نقلٍ عسكرية روسية - وكان يتهيأ للخروج بعد أن أمضى تِسعَ سنوات في العمل الأنصاري، دون استراحة أو إجازة. لم يطالب بدمه أحد. ولم يجرِ حتى تحرير محضر بالحادث!! (ي. ع)**

المطـارات العربيـة!!... «أنعَـشَتْ» مُخَيَّلتـكَ، وأيقَظَـتْ فيـكَ دَفقَـةً مـن كوابيس، خبَّأتَها فـي رَفٍّ من الذاكرة....

فـضَحَكَ واحـدٌ منهـا، يـومَ كـانَ حكـامُ دولـةٍ جـارة يتفاخـرون بجلاّدنـا، ويقـدّمون لـه الـصكوك وفـروضَ الطاعـة، طواعيـة، قبـل أن يكيدوا لـبعض... فَضَحَكَ جـوازٌ منحتكَ إيّاه دولـةٌ، سـتُهَرَّبُ لاحقاً مـن خارطـة العالم لتسكُنَ مُتونَ التدويـن....

كـنتَ قادمـاً مـن عـدن، قبـل أن تَذبحَها خناجـرُ الثـأرِ المعقوفـة لدولـةِ القبائل، عابراً فقـط! مثـل بريـدٍ جـوي ينتظـرُ طائرةً تنقلـه إلـى مطارٍ آخـر..!! لكـن «حداثـةً» أمنيـةً، لا تتنـافى مـع دمـاغٍ مُحَـزَّمٍ بعقـالٍ وكوفيَّـة، دلَّتْ رجُلَ الأمن إلى أن يهتدي، دون عنـاء وبلاغـة، إلـى الربـط بيـن الجـواز وحامله... مكان الميـلاد ووجهـة السفَر...

أمـسَكَ بالجـواز، فـأخرَجَ مـن بـينِ أسـنانٍ نظيفـةٍ، علـى خلفيـةٍ سَحنَةٍ بُنِّيَّةٍ مُغْبَرَّةٍ، سؤالاً: «لماذا لا تُساهمُ في شـرفِ الدفاعِ عـن البوابـةِ الـشرقيةِ للأمـة..؟؟ أتُـريدُ مـساعدةً مـن الـسفارة؟» قلـتَ.. «لا!» إنـكَ مجـرَّدُ عـابرٍ ينتظـرُ طـائرةً إلـى دمـشق، ومـن هنـاك إلـى أوربـا، حيـثُ تنتظـركَ صغيـرةٌ لـم تبلُغ سـنَّ الفِطـامِ بعدُ!.. يُصِـرُّ ذو العِقـال علـى أنْ يحضر أحداً لـ«يناقِشكَ» و«يساعِدَكَ»!

.....

تخطِفُ الجوازَ منه وتنـزِعُ وسـطَ مجموعـةٍ مـن الطلبـة اليمنـيين العائدين مـن الأجازة، للدراسـة فـي صـوفيا .... يشكلون حولـكَ طوقـاً،

ويهـدّدون بعمـلِ فـضيحـة فـي قاعـة الترانـزيت، إنْ مـسَّكَ أحـدٌ! عنـدها تحضر ثـلاثـةُ وجـوهٍ كالحـةُ السُمرةِ، بكـروشٍ مُكـوَّرَةٍ نافـرَةٍ، وعجيـزاتٍ تَزيـدها قُبحـاً مُسدَّساتٌ ناتـئةٌ خـلفَ بـدلاتٍ، صـارت زيِّـهم الموحَّـد، راحتْ تُـرغـي بَذاءَةً، تَجهلُها القواميس...!

....

....

ستفرحُ بنجاتكَ، لأنهـم لـو أفلحـوا فـي اختطافكَ، مَـنْ سيسمعُ استغاثتَكَ، ومـا الـذي سـيتغيّر! ومَـن سـيعْلَم؟! وبمسـتطاعِ مَـن أن يفعَلَ شـيئاً!! لـذلكَ يـنُطُّ عـصفورُ القلـبِ في قفـصه، مـا إنْ تَحُـطَّ في المطـارِ الآخر..!

تنتَعِلُ قلبَكَ وتحمِلُ هواجسَكَ في يديك، لأنـكَ مـا وصلتَ بعد! وما زالت المسافةُ مفتوحة على ظهر الغيب.....

... يلوحُ لكَ أنَّ المعنى قد يحتاجُ إلى زمنٍ آخر، كـي ينـضُجَ في ملحِ الواقعِ لا الرؤيا ولا الأمنيات..! وقد يحتاجُ لِمَنْ ينظرُ مـن علٍ إلى هـاويةٍ لم يقع فيها، كيف تصيرُ بحيرةً. فما نفـعُ البلاغَـةِ والجنـاسِ، ومـا جـدوى التوريةِ والمجاز، إذا انتبذوا بكَ إلى «صندوق» تحقيق؟! وأنتَ مجـرَّدَ عـابرِ مطـارٍ، تنتظـرُ طـائرةً تُقلُّـكَ إلى بـرلين!! مُجـرَّدٌ مـن بـراهينِ الوطنيـة والهوية؟

وستسألُ «أنا» كَ، إلى متى يتعيَّنُ عليكَ تقديم البراهينَ على أنـكَ أنتَ، أنتَ، لا غيرَكَ... وأنكَ ابنُ ذات الطمي، الذي تَفَـرَّقَ في الأرضِ نـوراً

وحرفاً ... وتحملُ، مثلَ بقيّةِ الخلقِ، نفسَ الثالوثِ الأرضيِّ المُقَدَّس: الحرية والمحبة والسلام..؟!

.....

.....

«أأنتَ صاحبُ هذا الجواز؟» يسألكَ نقيبُ المخابرات، فتقولُ نعم، يا سيدي، ومنذُ 48 ساعةً لم يغمض لي جفنٌ..... يسخرُ منكَ: «سيكونُ لديكَ ما يكفي من الوقتِ للنومِ، وللضجر، لأنكَ ستكون في ضيافتنا ..!!»

«ما الخبر؟» ببلاهةٍ تَسألُ، بعدَ أنْ تكونَ قد استجمعتَ بقايا ما شَتَّتَهُ الإعياءُ من تركيزٍ!

يتبيَّنُ لك بعد حين أنّ ثمَّة شخصاً يحملُ نفسَ اسمكَ وكنيتكَ، مطلوبٌ إلقاءُ القبض عليه... تحاولُ إقناعَ رجُلَ المخابرات بأنَّ ثمَّةَ خطأً في الأمر، فلا تفلح لأنكَ لا تحملُ وثيقة بالاسم الثلاثي، تُثبتَ أن المطلوبَ هو شخصٌ آخرُ غيرك..! تُجَنِّدُ كلَّ خبرتكَ وما قرأته، حتى قصص آرسين لوبين،...تفشَلُ! تحاولُ إقناعه بالسماحِ لك بالاتصال هاتفياً بصديقٍ كان وقتها يُطِلُّ من شاشة التلفزيون، يقرأ بيانَ إعلانِ تحالفٍ جديد تأسس في الشام، يهُزُّ رجلُ المخابرات يده في الهواء هازئاً: «طق حَنَكْ سياسي، لا بيجيب، ولا بيوَدّي، ما دَخَلنا نحنه فيه. قدّيش معاك مصاري؟ هات لنشوف أيش المعمول معاك!»

«يُحرِّرُكَ» من ثمانينَ دولارٍ! كُنتَ احتفظتَ بها لتشتري دخاناً وويسكي وعِطراً نسائياً من السوق الحرّة...

وفيما أنتَ والزمنُ، في «الصندوق» - الكابينه -، تجلسان عاطلين، يدلفُ إليكَ شخصٌ آخر يسألكَ، بسحنةٍ حيادية «شو أُصتك يا أخ؟» تحكي له ما حكيتَ لزميله السابق، فيقول: «بَدنا نشوف إيش يصير معك، لكن بَدنا نشوف إيش يطلعلنا معاك، أبليها؟!»

تقولُ له: «لكَ كل ما تلقاه معي من نقود!»

يصيحُ مُتضايقاً، قبلَ أنْ يَصفقَ البابَ بقوة: «العَمَه! حتى دُخان ما معو! آل بَدّو مساعده!! طيّبْ، كيفْ؟.. يا لطيف!... يا لطيف....!!»

.....

.....

الآن، الآن، وحسبْ، ستتحرَّرُ من وهمٍ آخرَ من أوهامك! سيتعيَّنُ عليكَ أنْ تُحسنَ التمييزَ بين الواقعِ والخيال.... بين ما أنتَ فيه الآنَ وما كُنتَه، قبل ذلك... وإنْ مَسَّكَ نايُ حنينٍ، خَبِّئ الرعشةَ جيداً تحتَ الجلد، لأنكَ منذ الآنَ ستكونُ محروساً إلكترونياً وشخصياً، ولن ترى القمرَ عندما يتكئُ على الحَذوَةِ مستريحاً... منذُ الآنَ عليكَ أنْ تُقيمَ علاقةً وديّةً مع كُرسيٍّ، ستجلسُ فوقه، ستغفو وتستيقظ... تستيقظُ وتغفو غيرَ مرة، فلا تودِّعُه إلاّ بعدَ اثنتينِ وسبعينَ ساعةً، عندما تأتي طائرةٌ تعود في نفس اليوم إلى برلين، «يمكنكَ أن تستقلَّها وكأنَّكَ ما كنتَ هنا»...!! ظلُّكَ، هو الآخر، سيطيرُ معكَ... ولن يبقى منكَ، سوى رائحتكَ على كرسيٍ مركونٍ عندَ بابِ المرافق العامة،... إلى اليمين منكَ

مدخل قاعة المسافرين، وإلى اليسار مطعم «سيتكرَّمُ» عليكَ بأن يُطَيِّرَ روائحَ مطبخِه إلى بطنٍ يستجيرُ جوعاً، وما من مُجيبٌ! لأنكَ «مُتَخَفِّفٌ»، إلاّ من عشرين ماركاً شرقياً، لا قيمةَ لها هناك، كفيلة بإطعامِ وسقاية ثلاثةِ أنفار في برلين....

عليكَ الآنَ أنْ تُفكِّرَ بحوارٍ مع صاحبكَ الكرسي، فأنتَ مركونٌ مثله، أو العكس، هو مركونٌ بسببكَ، لأنه لولاكَ لاحتَلَّ مكانه هناك عندَ طاولة تلكَ السيدة، التي تَضَوَّعُ إغراءاً وشهوةً... فتُشعلِلُ النارَ بين أفخاذ الرجال!!

ممنوعٌ أنْ تُغادرَ المكان، حفاظاً على سلامَتكَ!! حتى إنْ أردتَ دخول الحمّام، عليكَ أنْ تُخبرَ حارسَكَ الواقفَ في الركن يتابعُ التلفزيون!

.....

ستحكي لصاحبكَ الجالسِ فوقه، عن مسافةٍ مجازيةٍ، غير مرئيةٍ، بين منفاكَ الداخلي والخارجي... وكم أنَّ «هناك» كانت «هنا»، فلمْ يَعُدْ أيَّ شيءٍ شخصياً من فرطِ ما يُحيلُ إلى العام. ولم يَعُدْ أيَّ شيءٍ عاماً من فرطِ ما يمَسُّ الشخصي.... ستحلُ اللغةُ محلَّ الواقعِ، لتَبحَثَ عن أسطورتها في مُجملِ التجربة الإنسانية. هكذا، منذ البدء، لم يكن للقول من معنى، إلاّ إذا كان يبعثُ على التأمُّلِ وحافزاً للفعل.. كي لا يتمكَّن قُطّاع الطُرُقِ من نهبِ اللغةِ أرضَها، أو نهبِ الأرضِ لغتَها.... فما اللغة سوى حروفٍ خاملاتٍ ترصفُها لبعضٍ، تصيرُ مفرداتٍ... تَستَسقي حليبَ المعنى، فَتَحبو جناساً، حتى تستوي توريةً ومجازاً.... يصَيَّرُ

إيقاعاً، يَزِفُ الرعدَ للصحراءِ، فيَحبَلُ الرملُ كَمأً، لا أطعَمَ ولا ألَذَّ منه لحمُ الظبي!

❖ ❖ ❖

.....

.....

.... في المكانِ، كنتَ تبحثُ عن موطئ، وفي الزمان عن ملجأ، لكنَّكَ ستبحثُ الآنَ عن وطنٍ في العبارة، لم يُبقِ من ذكراكَ، غيرَ ما حفظته الحجارة... عن هامشِ حرية، يُعوِّضُكَ، مجازاً، عن عجزكَ عن تغيير الواقع... ستبحثُ عن حياةٍ تتَّسعُ لحُلُمٍ عاديٍّ، يحقِّقُ فيها الفرد والجماعة حرية اختيار طريقتهم الخاصة في الإقامةِ على هذه الأرض... بدءاً من حق المرأة في خلعِ الرجُلِ.. إلى حقِ المواطنِ في تغييرِ الحاكم، إلى حق الفرد والمجتمع في مُقارعةِ الاستبداد والاحتلال.... وحتى حق الحالمين بأن يحلموا بأنهم أحرار.. أو أن يروا بأن ماضيهم كان أفضلَ من حاضرهم... وحق جيلٍ، مرميٍ على كواهله، في أن يثورَ، إذا رأى أنَّ مُستقبلَه سيكونُ أسوأ من حاضره...

.....

حرَجٌ وارتباكٌ يَلُفّانكَ مخافةَ أنْ يكونَ أحدٌ ما ضبَطكَ، وأنتَ

تتحدَّثُ إلى لا أحد ... تعثّرَ بكَ أحد المسافرين المستعجلين، رمى اعتذاراً «إنكليزياً» بارداً، دون أن يلتَفتَ إليك، ومضى مسرعاً ....

تبقى مركوناً في مكانك، تُكرِّرُ حبّاتِ مسبَحَة زمنٍ مُتَهكِّمٍ، يأبى إلاّ أن يُضيفَ إلى خبرتك ما كان يمكن أن يفعلَه بثمنٍ أقلَّ من هذا..! وتظلُّ لا تُثيرُ فضولَ أحدٍ، إلا بعض المسافرين العابرينَ من قُدّامكَ مسرعين... يرميكَ بعضُهُم بنظراتٍ مستفسرة، تَوَدُّ لو تَعرِفُ بماذا يفكرون....

...«يا لطفولة هَرَبَتْ خطفاً! أريدُ طاقية الإخفاء...!»

.....

.....

- يُرجى من المسافرين إلى أمستردام على متن طائرة شركة ك.ل.م. التوجه إلى البوابة رقم 2....!

- الملكية الأردنية تُعلِن عن بدء رحلتها 1256 إلى عمان، وترجو من المسافرين على طائرتها «ترايدنت»، التوجه إلى البوابة رقم 4....!

.....

تحاول قضم الوقت كتفاحة... هيهات!

ماذا ستفعلُ بالوقت؟ حقائبُكَ مُودعةٌ في مكانٍ لا تَصِله... لا كتابَ ولا مجلة في متناولِ يدكَ... حتى أدوات الحلاقة «محبوسة» هناك في اللا مكان! ستطولُ لحيتُكَ وستشمُّ رائحةَ ما سينزُه جسمكَ من عرَقٍ. وستتواضعُ الأمنياتُ حدَّ أن تحلُمَ بدوشٍ ورغوة صابون، وبصحنِ

حساءٍ ساخن... وفراشٍ نظيفٍ تُلقي عليه إرهاقَكَ ووَسنكَ... كي تُكمِلَ ما تَيَسَّرَ لكَ من عُمرٍ.....

بك حاجة لأن تُحدِّثَ أحداً عن أي شيء، كأن تسأل عن الوقت، رغم أن ساعةً في يدك وتوجد أخرى في قاعة الترانزيت. يستغربُ الرجل من سؤالك، فيديرُ نظرة سريعة صوب ساعةِ يدك وأخرى على ساعة القاعة، لأنه لا يدرك ما أنتَ فيه وحاجتك إلى من تحدِّثُه!!

دونَ مُقَدّمات، يقعُ نظرك على السيدة إيّاها، شكلها أليفٌ بالنسبة لك، كأنها زارتكَ مرات في الحلم، لا تعرفُ اسمَها، ترتدي عُرياً متخفياً،... وحده الخيال يُمكن أن يرى فضيحةَ العُري المستور، حتى أعلى الركبتين، مما يشي بما يكهربُ الظهرَ، خاصة عندما تَلفُ ساقاً فوقَ أُخرى...

تشعُرُ، إذ تلتقي نظراتكما، أنها تدسّ البرقَ في عظامك، فتسري صعقةٌ كهربائية في عمودك الفقري... لكنها قادرة على ستر عريها بلولَبِ خصلةٍ من شعرها، تلفه على سبّابتها اليسرى فتزيدها إغراءاً وشبقاً....

ستصيرُ منذ الآن همّاً حُلواً يشغَلُكَ، تناجيه ولا تحتاجُ إلى إذنٍ أو سماحٍ من أحد... ستقولُ لها: سيدتي، ماذا تفعلين بهذا الجمال الوفير؟! إنه كثيرٌ علينا، يحبسُ الروحَ شهقَةً، ويقصفنا بما يذيبُ المُهجَة، ويشقّقُ بقايا الفحولة!

.....

وحيدةً، تجلسُ إلى الطاولة، تأكلُ بصمتٍ وعيونٍ شاردةٍ، مثل حيوانٍ حزين، تُقَلِّبُ مجلة دونما اهتمامٍ أو تركيزٍ ظاهرين...! مُنحنياتُ جسدِها، أهلَّةٌ ساهرةٌ على شبابيكِ الغوايةِ، للإيقاعِ بالناظرِ في إسارِ الدهشة..... دهاليزُ تَمتصُ نظراتٍ خاطفةً، مُتَلَصِّصةً...

هي دعوةٌ مُفَخَّخةٌ، تورِّطُكَ في متاهَتِها، شديدةِ الالتباس، تستدرِجُكَ نحو مزيدٍ من التيه...

هي متاهةٌ محكمةُ الانفتاح، تحتاج ضوءاً خاصاً لتجريدها من الغموض.... عنقودُ أسرارٍ، ينفَرِطُ من أوّلِ بَوحٍ....

جسَدٌ للشهواتِ يُذَوِّبُ رخامَ الكلام ليصقلَ مدائحَ الساق! ستهمِسُ لها، كأنها في حضنِكَ: كم امرأةٍ فيكِ، يا طفلةَ السماءِ لأسقُطَ في زحام روحي وأفيقَ على صدرِك!

كم امرأةٍ فيكِ لتَتَقَمَّصَ البرهةُ تأريخَ الصلاةِ والمجون!

زيدي الموقدَ حطباً، زيديني احتراقاً، فبي عطَشٌ لملحِك، أرخَيتُ أعِنَّةَ خيلي لتَردَ النبعَ...

شهوة تَلِدُ شهوةً، نارٌ لا تنطفئ، جسدٌ لا ينتهي، وشبقٌ يضيء الظلامَ والعظام..

.... ساخنٌ وبارد هذا الأنين، جسَدٌ لا يُبقي من اللغة غيرَ الصراخِ، وعرَقٍ يُبَرِّدُ الهواءَ ويجفَلْ....

.....

.....

سيشيخُ سهَرُكَ، وسينضجُ الوَسَنُ على أريجٍ من فُلٍّ مُشتَهىً، وستُضَيِّعُ النومَ في حُضنِها عن بُعد .... ستحنُ إلى كأسٍ شايٍ أسوَدَ، عامرٍ بالهال، دونه الويسكي وأيُّ شرابٍ آخر!

.....

.....

- يُرجى من السيد زين الحامد التوجه إلى الطائرة فوراً، البوابة 4..!

- السورية تُعلن عن رحلتها إلى إسطنبول - روما، يُرجى من المسافرين، التوجُّه إلى الطائرة عبر البوابة 1، ونعتذر عن التأخير لأسبابٍ فنيِّة!

ينفتحُ بابُ «المغادرين»، تَمُسُكَ نفحةٌ من هواء اللّه، فيصيرُ الـ«هناك» إلى «هنا»، وستطيرُ إلى سطحِ داركم، يومَ كُنتَ تلتَحِفُ السماءَ وتَعُدُّ النجومَ حتى تغفو، قبلَ أنْ يسرِقَ ظِلَّ النومِ عفريتٌ أو سعلاة... سطحٌ وسريرٌ فقير، دونه الآن فندقٌ بخمسِ نجوم...

.....

لا تستطيعُ الحديثَ إلى أحدٍ، فأنتَ مركونٌ هنا مثل أيَّةِ حقيبةٍ أو رُزمَةِ بريد تنتظرُ الشحنَ إلى مطارٍ آخر! لا يجرؤ، حتى الحارسُ على الحديثِ معكَ، كأنّكَ حاطومُ أو إبليسُ... تحاولُ الحديثَ معه، يرميكَ بنظرةٍ تنهرُكَ عن تكرار المحاولة، لكنه يسرقُ من الغفلة ما يكفي ليدسَّ في جيبكَ سندويشاً:

«وكيلك الله عَمَلتُو المَرَه بأيديها، آلتْ، يعيب الشوم! الراجل بيموت مجوع!»

ترفعُ رأسكَ لتقولَ كلمة شكرٍ، يديرُ ظهره كي لا يضبطه أحدٌ مُتَلَبِّساً بالحديث معكَ... تُحَوِّلُ نظركَ ناحيتها، وحينَ تراكَ وأنتَ تراها، تَتَشاغَلُ بتنظيف نظّاراتكَ.... وحين تنتهي من ذلك، تنظرُ إليها فتراها تراكَ، يقهركما الصمت، تروحُ هي تتشاغلُ برشِّ الملحِ على طعامها، وتأخُذُ رشفَةً من كأسِ نبيذٍ أحمر.

تُخاطبها في سرِّكَ: آه..! لو كنتِ مثلي ممنوعةً من السفر..! ربما كنتِ الآنَ تجلسين إلى جانبي، على كرسيٍ مماثل...!

تُحِسُ أنَّكَ أحرجتَها، فتَتظاهرُ بالحديث مع الحارسِ... ثم سرعان ما تلتقي نظراتكما، فتفترقانِ وتشعران بالحرج، تعود هي إلى كأسها، وأنتَ تبحثُ في جيوبكَ عن لا شيء...!

تتساءلُ في سِرِّكَ ما الذي يُغرِقُها في هذا الصمتِ الكثيف؟ أهو صمتُ وداعٍ أم رهبةُ انتظار ما لم يكنْ في الحسبان؟! يُخَيَّلُ إليكَ أنها سمعَتْ ما فَكَّرتَ به، فتراها ترفَع كأسها بعينٍ ضاحكةٍ، حسبتها رفعتْ نخبَكَ، فتهُزُكَ قشعريرة، وتروحُ تتأوه، حانقاً من عجزكَ، لأنكَ مقيَّدٌ من دونِ سلاسل!!

لم تَعُدْ تنظُرُ إليها لأنكَ تعلم أنها تنظُرُ إليكَ ولا تراكَ، من فرطِ ما كدَّستَ حولكَ من أدواتِ التأويلِ، وضبابٍ كثيفٍ من الكناياتِ، يتّسِعُ لتحبيرِ ما ليسَ لديكَ من ورقٍ أبيض... وفيما أنتَ تجلو

الافتراضات أو تتلهّى بها، تكون هي قد تقدّمَتْ نحوكَ دون أن تراها، ربَتَتْ بخفةٍ على كتفِكَ وقالت بغنج: «شو؟

طالِع عروما ...؟ يالله بينا!»....

.....

.....

لم تنظر إليها وهي تبتعد، كي لا تُهَيِّجَ شبقَ الرحيل، فتَغرقَ في الكآبة.

مَنْ يعرِفُ كيفَ يحيا الإنسان في مطار رغم أنف العقل والمعقول....؟!

سؤالٌ يدفَعُ الحاضِرَ إلى الهروَلةِ والتخفّي خلف شعارٍ، ويُحيلُ المستقبَلَ إلى التَخندُقِ بظهرِ الغيب!

❖ ❖ ❖

ها قد مرَّتْ ثلاثُ سنواتٍ مُنذُ بدأ الحنينُ إلى وطنٍ يأكُلُ جوفَكَ.... مَنْ يدري كم ستطولُ «الرحلة»؟! سيزدادُ الوطنُ ابتعاداً وسيولدُ أطفالٌ، يشبّون على حنينِ أهلهم، وسيحفظونَ ذكرى وطنٍ لم يَرَوا منه غيرَ صُوَرٍ ستكتسي صُفْرةً، مع عمرٍ يحُثُّ الجري....

ولأنكَ تكرهُ الانتظارَ، ستشتري أملاً لتقريبِ وطنٍ هاربٍ...

ستتأبَّطُ خُطاكَ صوبَ ما يُنعِشُ الحلم والذكرى، بحثاً عن مساحةٍ للريحِ وللإنشاد...

أردتَ أن تكونَ هناكَ، وترى بعينكَ، كي لا تكونَ خارجَ المسرح، ولا تحضُرَ عليه، إلاّ بوصفكَ موضوعاً يقومُ الآخرونَ بالتعبيرِ عنه كما يريدونْ... كنتَ تريدُ أنْ ترى لأنَّكَ حَفظتَ ما سمعْتْ! ستَجُرُّ خُطاكَ جراً، ولكنَّكَ لن تموتْ، وستسحبُ ظلَّكَ على أرصفةِ الغربة، وستظَلُّ حيَّاً، وستمشي أيامُكَ أمامَكَ مثلَ قطيعِ ماعزٍ لا يأتلفُ، وستحلمُ وستهذي كثيراً، ولكنكَ ستعيش... وتحيا بعد حادثة الجُرَذ ....، الذي مَرَّغَ هيبةَ المطار بالتراب.....

وإذ يستشعر أمنُ المطار أزيزاً غريباً في جهاز المرطبات المركون، في زاويةٍ... ترتعدُ الفرائص، ويدبُّ الرعبُ في الجميع وسيركضون في كل الاتجاهات، إلاّ أنتَ المستغرقَ في الأحلام... ستُخلى قاعةُ المسافرين إلى ساحة المطار الداخليَّة، وسيُدفَعُ المستقبلون والمودعون إلى خارج المبنى، لكنهم سيحارونَ فيكَ، فيشيرُ أحدهم، إلى المرافق العامة.... سيحتجزونكَ هناك لأكثرَ من ساعةٍ حتى يقعُوا على سرِّ العمل التخريبي!! سيتبَيَّنُ أن جُرَذاً جائعاً لم يجد ما يأكله، لذلك سطا على بطن الجهاز!!

هكذا، ببساطة، يمكن لجرذٍ رقيعٍ أن يُبهدِلَ هيبةَ مطارٍ «دولي»، ويمكن لجرذٍ آخرَ أن يحكُمَ دولةً!.....

بعد ذلك تروحُ الهيبةُ المبعثرةُ تُرَتِّبُ هندامَها وتزدادُ غلظةً في التعامُل، كي لا تسمحَ بنُكتةٍ أو تعليقٍ ساخر!

وفيما أنتَ تحاولُ ترتيبَ مشاعرِكَ، المُتَمَنِّعَةِ على التوصيف، لا تُصَدَّقُ ما يصلُ إلى أُذنِكَ: «الأنترفلوك تُعلنُ عن رحلتها المعتادة إلى برلين، وترجو مسافريها التوجهَ إلى الطائرة عبر البوَّابة 3».....

تتصادمُ نظراتُكما، أنتَ وحارسَكَ، فترتسمُ ابتسامةٌ حييَّةٌ، على وجهٍ ذي ملامحَ ريفيَّةٍ: «سِيدِيْ، الحمدُ للّه، فُرجَتْ! ما بيدنا شَيْ، اللّه وكيلكْ! نحنه ناس مأمورين....!!»... تشعُرُ بشيءٍ من التعاطفِ مع هذا الكائن المغلوب على أمره.... تودِّعه بعد أن تستفسرَ عن حقيبتِكَ...

.....

.....

أحياناً لا تأتي المفاجآتُ فُرادى... إنما جمعاً، يصعُبُ عليكَ استيعابُها...

تتجهُ نحو بوابة «المغادرين»، وأنتَ تُلَملِمُ بقايا صحوٍ من سُهادٍ، يُبقيكَ واقفاً على اثنتين، تسمعُ صوتاً يناديكَ باسمكَ الفصيح، مما لا يتركُ مجالاً للتأويل،

: «إي! يا زَلَمَه....ليش ما إتَّصَلِتْ؟! كُنا نشوف بَعضْ، ونِسهَر، هيكْ شوَيْ!»

كان قيس الزبيدي وصاحبُه أبو عبدو متوجِّهَين على الطائرة ذاتها... ولما فيكَ من إعياءٍ وفرَحِ نجاةٍ، ستقولُ له: «في برلين، سأقُصُّ عليكَ الحكايةَ كُلَّها»...!

ترمي نفسكَ على كرسيٍ في الطائرة، فتبتلعُكَ «برمودا» شَرِهَةٌ

للغفو... فترى في منامِكَ أنكَ تتذكّرُ سيدةَ المطار، وقتَ كنتما في فندق هلتون بأديس أبابا، وتتذكرُ اسمها، وكُلَّ تفصيلٍ في «أفروديت».....

.....

.....

كم هيَ رخوةٌ ذاكرةُ المطارات...؟!

. . . . صلاة

صباحُ الورد، يا أنتِ، صباحُ الفُلِّ والياسمين...

الليلةَ لـمْ يفارقْني طيفُك، فنسيتُ، خـلالَ نَوبـةِ الحراسـة فـوق التَّلِّ، أن أَعُـدَّ الشُهُبَ الساقطةَ على الجبل مـن سماءٍ خفيضةٍ،... ولا أدري إن اسـتطاعَ أحَـدٌ مـن الـشياطين أن ينفَـذَ إلـى الـسما ء، لملاقـاةِ حوريّة، في غفلةٍ من مَلاكٍ - كما كانت تَقُصُّ علينا جَدّتي -...

غداً ستكونُ نوبَتُكِ في المطبـخ... ولا يهُمّني كيف ستحضّرينَ العـدَسَ، فهـو والـشاي والخبـز مـا تبقّـى لنـا، لأن «حُـرّاسَ البوابـة الشرقيَّة للأمَّة!» فَرَضوا تجويعنا... لكنَّنا لن نموتَ جوعاً... فأرضُ اللّه، هنا، لا تبخـلُ...! سيتعيّنُ عليكِ اليومَ جمعُ كفايةٍ من الحطبِ لثلاثِ وجباتٍ وخمسةٍ وثلاثين بطناً خاويـة... يساراً، حيثُ ينبُضُ القلـبُ، بـذَرنا خُـضرةً للربيـع والـصيف، اعبُـري الجـدولَ باتجـاه الشَّلاّل.... واصعدي كَتِفَ «شاه جيو» - ملكِ الجبال - صـوبَ غابـةِ البلوط، حيثُ الحطبُ وفيرٌ، دونَ عناء، لأنَّهُ باتجاه مرمـى مدفعيَّـةِ السُلطة!... سأنتظرُكِ تحتَ شجرةِ الجـوز، لنصعدَ مـن هنـاكَ إلـى حيثُ «مغارتي».....!

....

....

تعالَـيْ يا فَرَساً تُشاكِسُ المجهـولَ... تعالَـي يا مُهـرةً طالعـةً مـن مدائـحِ العـرَبِ... يا ظبياً هارباً من صـهيلِ الـصافنات... ويـا مهـاً، بمـا حولَكِ مـن صَيّـادينَ باكـينَ مـنْ نجاتـكِ.... أنتِ الهـاربَـةَ مـن مـاضيها ومُستقبلها، تبحَثُ عنْ لَفْظٍ، مُلقىً علـى وجـه المـاءِ... تعالَـيْ فأنـاملي لصوفِ الخوخِ عندكِ جَوْعَى....

تعاليْ نُديرُ الظهرَ لخناجرِ الحـربِ.... ولا تَفزعـي مـن القـصفِ المـدفعيّ، مـا دُمنـا نـسمعُه ونـشمُّ رائحـةَ النعنـاع... اصـعدي للمغـارة، وتَصبَّبي لُهاثاً يصهُلُ... وانضَحي عَرَقَ الأنوثة... لا تحسَبي أنَّ هناكَ ما يوجِعُ أكثـرَ مـن الوحشةِ والحنين...

....

تعاليْ فالوقتُ غير مناسبٍ لتمليحِ الجراحِ، وتشريحِ التَّورية!!

تعالَـي نُـراوغِ الخـوفَ فـي التبـاس المعانـي، ونخبِّـيءِ الـدمعَ خلـف ستارِ الصمت، مراعاةً لطُقوسِ الشجاعة!!

تعالـي، حتـى لا ينـسى المكـان نفـسَه، يَسُدُّ ذاكـرتَهُ دوننـا، فمـا نحـنُ بـ «قـريشيّينَ»!، لكنَّ لنا فـي كلِّ صيفٍ «رحـلة»....!! نحـن، الـذين «دعـا» علينـا فيلـسوفُ الألمـان «أن لا يكـونَ لنـا وطـنٌ»!! لنـا الـشتاتُ فقط....! سنصيرُ «بدوَ» الحَضَرِ أو «غجَرَهُم».....

تعالـيْ فما بمقدورنا، نحنُ المحاصرينَ فـي هذا «المثلَّث»[1] من أرضِ اللّه، غيرَ أنْ نُحرِّرَ جِنَّ الشبقِ من سجنِ الكلامِ المصقول...

تعالـيْ نذَرتُ هذا النثرَ وأبجديَّتَه، حَطَبَاً لموقدِ شوقٍ، لا يَبرُدْ!

تعالـيْ فكلانا غريبٌ في سفينةٍ جَحَظَتْ عيونُها شوقاً لِبَرٍّ....

تعالـيْ، كَفِّكفي عَطَشي إليكِ....،

... وهُشّي كوابيسَ الحنينِ إليكِ...،

... اصعدي من الضبابِ، وفَجِّري فِيَّ جُنونَ الحروُفِ...

تعالـي نَهيمُ وسطَ بخارِ الشوقِ، ونخطِفِ التَّوريةَ من هُدُبِ النجمِ... فقد خذلَتني في حُبِّكِ كلُّ القواميس، ولم تُشعِلْ شمعةَ الكلام خوفاً من بوحٍ يجرحكِ...

أرضعُ الحنينَ إليكِ كلَّ مساء، قبلَ أن أغفو... أمسِّدُه كي لا يترهّل، وأُشعِلُ تحت اللحافِ مشاعلَ تمرُّدي ومروقي على كل الأقانيم.... أُوغلُ في النعاسِ أستحلِبُ طيفَكِ، أركَبُ ريحاً تُعابثُ موكبَ الغجرِ الصاعدَ، العابرَ للحدود، الداخلَ في أُسطورةِ التَّيه، فأشهَقُ بهذيانٍ لذيذِ الالتباس، حتى تتناثري قطراتِ ندىً في سريرِ وحشتي...

... تعالَيْ، ولا تنسَيْ أن تَستجلبي معكِ لذَّةً، خبأتِها تحتَ زيٍّ

---

[1] «المثلث»، المقصودُ به المنطقةَ من أرضِ العراق، بلادَ ما بين النهرين، المحصورةَ بين تركيا وإيرانَ والعراق.. حيث كانت مقرّاتُ قيادة الحزب الشيوعي العراقي وإعلامِه المركزي خلال فترة الكفاح المسلح، حتى عام 1988، حين استخدم نظامُ صدام حسين الأسلحة الكيمياوية ضد قوى المعارضة.. (ي. ع)

الأنصار فراحَتْ تستغيثُ، مستحثَّةً، كلّما مرَرت، دزينةً من الشوارب المرتجفة ونظرات عامرةً بشبقٍ مكتومٍ، يُوشكُ أنْ ينفلتَ....!!

اتبعي صوتَ دَميْ، ستجدينَني مُشرَعَ الصدر، مشوَّياً على سيخِ انتظار، جاهزاً للموتِ فيكِ، واقفاً فيكِ، فنسكَرُ بعناقٍ يَخنقُ الظلَّ بيننا، حتى تَفصلَنا قذيفةٌ عمياءُ.....

وحين تجيئين ستكونُ المغارةُ، التي مَلَّت الحُلمَ بحفنةٍ من نورٍ، قد احتشدَتْ بتوترٍ، كذلك، الذي دوّخَ زيوس وأنزله من الأولمب... بعدها سينشقُ سورُ الصحو ونسقطُ في غفوٍ، يستريح فيه ظلُ الصدى من حَرِّ لُهاثنا، وتتنسَّمُ المغارةُ رحيقَ الصَبابَة، فينزُ الصخرُ حُبيباتِ ندىً، هي ذاكرةُ الأرض البِكر... وتصيرُ (المغارةُ) فضاءً رؤوماً لكلِّ الأصوات بدءاً بالأنين، حتى الصراخ، وما يكتنفُ شدقَيِّ المسافةِ بينهما ....

.....

.....

دُقّي بكعبكِ، حلوتي، دُقّي..، فلا وظيفةَ لجبينِ الأرضِ غيرَ إرجاع إيقاعكِ...

دُقّي بـ «خُلخالكِ»، يُنثَرُ الفُلُ، حتى يُدوِّخُني جنُكِ، فألحَسُ خَطوَكِ لاهثاً، واصعدي بي صوبَ مجرّاتٍ ما وَطِئَها إنسٌ ولا جان.. فمن الأرض تبتدئ السماء..

اخلعي السِّروالَ وارتدي فُستاناً مُهَفهَفاً يرقُص للنسيم... ارمِ

الـ«سمـسون»[2]، والبـسي كعبـاً عاليـاً يَـشُدُّ الـساقين لأنوثـةٍ متأهِّبـةٍ للوثوب... فلا حاجَـةَ بنـا إلـى أساطيـرَ، إلاّ لإضفـاء السحرِ علـى الكـلام في ليالـي الشتاء الطويلة، وتدريبِ الوحوشِ على طاعـةِ نَصِّ الحكاية...

لا نحتاجُ أن نُعلِّقَ ملابسَنا على الأشجار، ونرتدي العُريَ، حتى لا يرانا قنّاصُ الموتِ ببدلـةِ آدم....

قد تُقاطعُنا قذيفةٌ ضالَّةٌ، تبحث عن هدف...

فما نحنُ سوى «طروادِيين نجوا من المذبحة»، انتَبَذوا إلـى هنـا يَتَلَهَّوْنَ بما رُزِقُوا به من فُضْلَةِ عُمُرٍ ليصنعوا «مسادَتَ» هم... ويتيهـوا في شتاتٍ، بلا «عقدٍ»، بلا «ميعاد»!!

بكعبيـكِ دُقِّـي موطِـنَ الألَـمِ القَطَنـيِّ.... دُقِّـي مَنبَـتَ الظهـرِ، سيتناسَـلُ المـوجُ بـين مَـدٍّ وجـزرٍ، ويـصيرُ سونامـي، يُطَـوِّحُ بنـا فـوقَ سطـوحِ اللّه،.. ستَنسى اللغـةُ كـلَّ المفـردات، فـلا يبقـى سـوى الأنـينِ، وفحيـحٍ سريـعٍ، سريـعٍ... سريـــــعْ، يتكسَّرُ موجُـهُ علـى رخـام الجسد،.. فنَهْوِي مثلَ نجمٍ... ونسبَحُ في بَلَلٍ يُحوِّلُ الهواءَ عليلاً....!

.. أُحبُّ الصلاةَ... وأُحبُّ الركـوعَ فـي محـرابِكِ، تُسندينَ السماءَ برجليكِ تضرُّعاً لقَطْرٍ.....!

---

[2] «سمسون» هي ماركةٌ لشركةٍ في تركيا تُصنِّعُ مختلف السلع، ومنها أحذيةٌ بلاستيكية، لا علاقةَ لها بالأناقة، اعتادَ الأنصارُ تداولَها، نظراً لخفَّتِها، فلا تُحدثُ صوتاً أثناءَ المسير، ولأنها تسمحُ بالخوضِ في المياه، أثناء عبورِ الأنهارِ والجداولِ والخوضِ في الثلوج... (ي. ع)

.....

.....

.... لا نحتاجُ أن نشُدَّ رَسَنَ العبارة، ففينا كفايةٌ من نُضجِ الخسارة...

... نحنُ، الذينَ دَخَلنا وأُدخلنا، بـ«بغالنا»، في سباقٍ غيرَ مُتكافِىءٍ مع الزمن، الذي يسوطُ مركبَتَه الفضائية بسرعةٍ صاروخية، حتى بِتنا نتوسَّله:

«انتظرنا! لا تُسرِعْ! فلا وقتَ كافياً لدينا لمراجعة أسماءِ العاطفة في موسوعة المُترادِفات،.. ولا وقتَ لدينا، حتى لانتقاءِ المفرداتِ اللَّائقة بنصيرةٍ تنضُجُ بين الصخرِ وأزيزِ الرصاص.... في رَعَويَّة العواطف، وتصَحُّرِ اللياقة..! نصيرةٍ تحلُمُ بأطرافِ كلامٍ خفيفِ الوزنِ، رشيقِ اللحنِ، ينزُ كحُبَيبَاتِ النَّدى»...

تعالَيْ، فلديَّ صغيرٌ لا ينامُ من البرد، يَحتاجُ دفيئةً، يتمطَّى فيها، حتى يسيلَ حليبه فَيَغفُوَ....

... لا أبحثُ عن شيءٍ خارقٍ وعظيمٍ، أبحثُ عن فُسحَةٍ صغيرةٍ للفَرَحِ... وللنشْوَة... مُرهِقةٌ هي التفاصيلُ أحياناً .... لكنَّ بي عطَشاً لملحِ جسدك، ولرائحة الحموضة إياها ....!!

أمِنْ طبيعة الحربِ أنْ تُوَلِّدَ كلَّ هذا الشبَقْ؟ وهلْ من طبيعةِ الخوفِ من الموتِ أنْ يتوتَّرَ كُلَّ هذا التوَتُّر؟!

ما أجملَ أن نتَغَلَّبَ على الحربِ فينا بهذا الخوفِ اللذيذِ، يُوَحِّدُ

الجسدين، فنُسوِّسُ فيه مسمارَ اللذة صُعوداً، صعوداً... كالفراشات مُدوَّخةً بالزهرِ، ساخرينَ من عواءِ الحربِ بعواءِ الجسدِ، المُلتاعِ من الشَّدّ...

تسألينني إنْ كنتُ أُحبُّك؟ لا أُحبُّك إذا كانَ الحبُّ يستغرقُ وقتاً أطوَلَ من إطلاقِ رصاصةٍ في النخاعِ الشوكي، لكني أُحبُّك إذا كانَ الحب امتثالاً لصاعقةِ برقٍ تضربني الساعةَ فتحيلُني إلى كومةِ رُكامٍ أمامَك...

إذْ لا وقتَ للحبِّ في حربٍ لا نسرقُ منها سوى امتصاصِ مصادرِ الحياة! أُحبُّك حباً لا يستدعي ثرثرةً، ولا أناقَةَ كلامٍ، ولا بلاغةً، إلاّ بلاغةَ الحسيِّ في الجسد... ولا يتَطَلَّبُ ارتداءَ ثيابٍ على مهلٍ... فلا وقتَ لتباطُؤِ الانحلالِ من العناقِ.....

... أنا الممسوسَ بكِ، يُربكني حضورُك، أتَلَعثَمُ، أتَعَثَّرُ بظلّي، فتضحكيَن حتى يُغمى على ثيابك...

أُحبُّك حُبَّاً، لا وقتَ فيه لبيروقراطيَّةِ هيامٍ طويلٍ مُتخَمٍ، يستدعي إدارةَ شؤون المواعيدِ، وصيانةَ الشوقِ من العطَبِ... هيَ نزوةٌ، إنْ شئتِ، لا تتساوى فيها العواطف.... فهلْ هذا حرام..؟؟

... أُحبُّ الحبَّ على صخرةٍ، كما في هذه المغارةِ، لا يحتاجُ إلى إعادةِ ترتيبٍ، لما يمكنُ أن يتَجعَّدَ ويوشي، بما يَعُدُّهُ «فُقَهاءُ» الأخلاق العنّينونَ العُصابيونَ.... تابوهاً....! دونَ إدراكٍ لما يُمكن للحربِ أنْ تُضفي من تَصَوُّفٍ شهوانيٍ على هذا الاختلاس الماكرِ...!

لذلكَ، لا تأبهي لما يُثيرُهُ الآخرونَ من غبارِ خيولٍ، مُتَوَهَّمَةِ الجموحِ، بشعاراتٍ ورايات....

وبعد ...! لا تسأليني إنْ كنتُ أُحبُّك، لأنكِ تعرفينَ كمْ يعبُدُكِ جسدي الباحثُ عن سلامته في جسد .....

.....

ننوءُ بأشواقنا الصغيرةِ وأسئلةٍ ظلَّتْ تبحثُ عبثاً عن أجوبةٍ مستحيلةٍ، فَرُحنا نَغرَقُ في أبجديَّاتِ الغموض!

... وأمسينا نَنحَتُ القادمَ من المجهول!

... خُذيني، ها أنا ذا، خذيني، نستلُ الحلمَ من غمدِ الغواية، نستحلبُ الممكنَ من دهاليزِ المستحيل... ونُطاردُ وعولَ الفكرة، تَرعَى في مروجِ التحوُّلات، عندَ حافَّاتِ الخراب، وسط دخان الحرائق... فهذا وطنٌ سيلفّقونَه من نفطٍ وخرافاتٍ وقبائل ونهران دم...

تعالي، غُرَباءُ نحن... فالوطنُ في القلبِ فقط!

كذبَ منْ قالَ أنّا سليلو جلجامش... فتعالي نبحثْ في هذا الجبلِ عن عشبةِ النسيان، تتَخفّفُ أرواحنا وأجسادُنا بها من أثقالٍ تَعبَتْ من كواهلنا ...!!

من اليقينِ عُراةٌ نحن... أديمُنا مكشوفٌ للقصفِ وللشمسِ والثلج وللشَّكِّ..

.. تعالَيْ زهرةَ الأوركيد، مَسدِّي مخاوفي، فما اليقينُ سوى فخٍّ للإيقاعِ بأجنحةِ الشك،.... نحن رعاةُ الخسارةِ، مرفوعو الهامِ منذ زمانِ

سبارتاكوس وحمدان القرمطي! نحن ضحايانا .... نتألق بنار المعصية، دون أنْ يكونَ لنا بديلٌ أرضيٌ.... ما أردنا آلهة تكون عادلة، نادلة تلبّي الطلبات والرغبات في جنة موعودة في السماء، أردناها على الأرض..!!

.....

لا تفزعي! خذيني راعياً لجُنونِ العبارة..... و تعالَيْ نسخرْ من الهلاكِ ومن أكاذيبَ صَنَعها اليأس، سنحلمُ برؤىً نُضيِّعُها في العصفِ، فنتعلم حكمةَ الكفرِ بالحكمة مطلقاً..!! حتى نحرسَ مخيالنا، نقبضُ به حقيقَتَنَا.

.....

.....

جُرّيني لهذيانٍ، به نُهدهدُ هذا المساءَ على أرجوحةِ طاسةٍ من فضةٍ مُعلَّقَةٍ في هواء اللّه، يسترخي على كونشرتو بيانو لرحمانينوف....

تعالَيْ لنخرُجَ من عُتمةِ الإبهام إلى يقينِ إشراقِ الحواسّ...
لكِ في خوابي الروح، عَتّقْتُ شوقاً فيه حُرقةُ العسلِ...
تعالي، ضميني إليكِ ولا تبخلي...
تعالي، فالكأس عطشاً إليكِ تئنُ، بُلِّيها ...!
أشتهيكِ اليوم...
نعم! لا تفزعي!

.....

أشتهيكِ، وأشتهي ربَّكِ ودينَكِ معاً ...!!

فهلْ فـي هذا عيب؟؟

أيُّ نفاقٍ هذا، الذي يُحرِّمُ البوحَ لا الممارسة!!

.....

.....

❖ ❖ ❖

لستُ أدري، سيَّدَتي،... شيءٌ ما يقودني نحوَكِ بشكلٍ أعمَىً... كلَّما قرّرتُ تركَكِ، كي ترتاحي نهائياً وتتخلَّصي منّي، ليعرفَ كلانا كيف يعيش...

أشتهيكِ، إذْ أتركُكِ، وأخافُ عليكِ من حماقاتي وارتباكاتي حينما أكونُ معكِ..... ولا أدري لماذا أفتحُ أبوابَ الكوابيسِ والأحلامِ وأُفتِّشُ عنكِ في الزوايا المُعتمةِ، علَّني أجدُكِ فأهمُسُ لكِ: أُحبُّكِ!!... أنا الدخيلُ إليكِ، فانصريني،... عليّ...!

أينَ كُنتِ كلَّ هذا الزمنِ، الذي افتقدتُكِ فيه، يومَ قُلتُ لكِ إنّي مسافرٌ إلى حيثُ تتسلَّقُ الشمسُ سُلَّمَ الفجرِ...؟؟

أراكِ ما عُدتِ أنتِ.. أشياءٌ كثيرةٌ امَّحَتْ منكِ، غيَّرَكِ الغيابُ.... كلُّ شيءٍ فيكِ انسحبَ، مخلِّفاً بُخارَ كأسٍ بعينها، يومَ كُنّا نغوصُ في

أسئلةٍ، هي في النهايةِ ليست إلاّ منحدراتٍ حادةٍ لإجاباتٍ تتكسرُ رِقابُها، قبلَ أنْ تَصلَ إلينا .....

... أعرفُ أنَّ كلينا قابلٌ للصياغة والتشكيلِ والتحوُّل... كلمةٌ تكفي لتُشعلَنا فرحاً، وأُخرى ترمينا نحو هُوَّةِ قياماتٍ، لا قرارَ لها ...

لا أَشُكُّ في احتمالِ خطأي... إذ أنّي خَسِرتُ كُلَّ يقينيَّاتي، حتى البسيطَةَ منها، منذُ افتقدتُك، قبلَ أنْ تلتحقي بنا ... فما معنى أنْ نُفَلسِفَ الدنيا إذا كنَا .. كلَّما فتحنا للأسئلةِ باباً، أغلَقنا كلَّ أبوابِ السعادة...؟؟!!

ما لكِ تُقاومينَ صمتَكِ، باحتقانٍ يُسرِّبُ الكلماتِ من بينِ شفتَيكِ المُطبِقَتَين...؟

قولي، كما كنتِ تهزئين: «ها، إنّكَ بدأتَ تسقُطُ في التنظيرِ الأجوَفْ.. فالحُبُّ لا يُطيقُ الأسئلةَ الكثيرة...!» عبارةٌ قُلتُها لكِ في سياقٍ آخر، فحَفِظْتِها، عن ظهرِ نسيان..!!

.....

.....

آهٍ منكِ، من خوفِكِ.. ومنْ صمتِكِ.... هُشّيْ حُروفَ الأبجديّةِ عنِّي، فُتحَتْ شَهِيَّتي للحماقاتِ، فلا أقوى على منازلةِ شهوةِ الكلمات....

البردُ والثلجُ والأمطارُ، وكُلُّ الإيقاعاتِ الحزينةِ تشُدُّنا لبعضٍ،

حَدَّ النسيانِ والتلاشي... آه، لو تَدرينَ كم أُحبُكِ.... وكم أنَّ عودةَ الشتاءِ تؤذيني! أخافُ من مُجَرّدِ فكرةِ أنْ يخطفَ الموتُ أَحَدَنا ...

تُرى ماذا سيفعلُ بالآخر؟!

.....

لماذا تركتني أذهبُ في مطلَعٍ، لا وضوحَ إلاّ في نهايته؟! ألَمْ يكنْ بمقدورِكِ أنْ تَسُدّي في وجهي، منحدراتِ الانزلاقِ..؟! لماذا تركتِني، مُغمَضَ العينينِ، أمضي نحوَ «حتفي»..؟!

أضجرُ من نفسي لأني وقَّعتُ معكِ ميثاقَ غياب...

هَلْ تَعِبتِ، كما تفعلُ المرايا من تكرارِ الوجوه، ذاتها؟!

أنا أدمنتُكِ، بما لا شفاءَ منه... وأجدُني أُبرِّئُكِ من التُهَمِ الصغيرةِ، التي أُلصِقَتْ بكِ، وحرَصتِ أنتِ، في عنادِكِ المعهودِ، على إثباتها .... ممّاَ أنعَشَ جارنا، العانس.... كانَ يُحَذّرني من «بناتِ الحرام، اللي ميعُرفَنْ اللّه!» وماتَ دونَ أنْ يتعرَّفَ على جسَدِ امرأة، حتى مقابلَ مبلغٍ.....!!

فهَلْ كُنتِ تُريدينَ حَلَّ عُقدَةِ ضميرٍ، تقولينَ فيها لنَفسكِ: «هذا هوَ خياره.. وما علَيَّ إلاّ القبولُ به...؟!» كُنتِ تكذبينَ على نفسكِ، وتعرفينَ ذلك... فماذا يساوي الكلامُ، الآنَ، أمامَ خساراتٍ، لا تعويضَ لها ...؟!

❖ ❖ ❖

مـنْ يُنقذُنـي من صَبْيَنَـةٍ لا أُفكَّرُ فيها بدليلٍ على أنني، غيرَ مـرَّةٍ، أُعجبتُ وانجذَبتُ، تولّهتُ وهمتُ، أحببتُ وشُغفتُ، هوَيتُ وعَشقتُ... وغيرهـا ممـا لا أحفَظُ مـن سيرةِ التباسِ الصفاتِ والمراتبِ والأحـوال علـى الرغبـات، الـتي تُحـدِثُ في الجـسد تغييـراً سِـرِّيّاً مختلفـاً عـن سـواه....

وفـي كلِّ مـرة كنتُ صادقاً...

لذلكَ لا أحارُ، ولا أُسرِفُ في التأويلِ، حينما يقولُ لـيَ الأطباء «قلبُكَ معطوبٌ..! عليكَ بتركِ التدخينِ والقهوة والكأس والإجهـاد الفكري...» فأُمازحهم قائلاً: «ازرعوا لـي دمـاغَ خـروفٍ كـي أُحَـقِّقَ كـلَّ مـا تطلبون!.. فالخروفُ لا يُدخِّنُ ولا يشربُ القهـوةَ ولا يحبُّ الكـأسَ ولا يكتُبْ...»!!

.....

هـو ذا صـاحبي، هـذا القلـبُ، أعرِفُـهُ جيِّـداً منـذ أوّلِ انكـسارٍ أصـابَه.... يـومَ لم تفـتح (هـ) البـابَ لـه، وتركَـته في ذُلِّـه، علـى قارعـة انتظـارٍ.... أعـرفُـه نُدبـةً، نُدبـة، وجرحـاً فجرحـاً... ومـا زال هَـشّاً، رقيقـاً، أبلـهَ، مثلَ طفلٍ صـغيرٍ... ينخطِفُ لعطـرِ مسافرةٍ تجلـسُ فـي نفسِ الكابينـة معـه بقطـارٍ... ويختَـلُ إيقاعُـه لغَمّـازةِ ردفِ مُضيّفةٍ فـي طيرانٍ ليليٍّ مديد .... ويتحوّلُ إلـى كنغرٍ، ينـطُ لرؤيـةِ نهدٍ طليقٍ، مغرورٍ، يتحدّى شرَهَ نظراتٍ متلصِّصةٍ...

هذا هو قلبـي، أعرفُه، هـوَ، هـوَ... كما كـان دومـاً، لا يتَمَنَّـعُ على

الغواية، لا يتّعظُ، ولا يتعالى على التجريب... لأنه لا حُبَّ يشبه الحب، ولا عشقَ يشبه الآخر، فلكلٍّ عطرُه الخاصُ ومذاقُه المميَّز.... فالحبُ ليس فكرةً، إنما عاطفةٌ تسخُنُ وتَبْرُد، تأتي وتروح.... تتجسّدُ في شكلِ مَلاك، ذي أجنحةٍ خفيفةٍ تقتلعُنا من الأرض، يجتاحُنا أحياناً كثورٍ أهوَجَ يطرحُنا أرضاً وينصرفْ... ويهُبُّ، في أحايينَ أُخرى، بشكلِ عاصفةٍ، لا نتعَرَّفُ عليها، إلاّ من خلالِ ما تُخَلِّفُه من دمار... وهو نقيضُ التكرارِ والإلحاحِ على إدخال اللغة في غُرَفٍ مُعَقّمةِ الهواءِ للنحو وللصَرف، وإلاّ صارَ زواجاً تَحِلُّ فيه صيانَةُ الكلامِ من الزلَلِ، محَلَّ عفَويَّةٍ، لا يقومُ الحبُّ بدونها، لتحريضِ المجهولِ على إغلاقِ الطريقِ أمامَ المعلوم... وفَتحِ خِزانةِ أسراره...

لكنَّ كلَّ هذه الألوانِ تتجسَّدُ في حوَّاءَ حِسّيَةٍ مرئيةٍ، ملموسةٍ محسوسة، لا في فكرة.... فينكبُّ الخيالُ على تَفَحُّصِ ما فيها من غموضٍ وغرائبَ....

شَذَراتٌ من دفاترَ ضاعَتْ

عِفريتٌ من جِنِّ سُليمان!

في ظهيرةٍ ربيعيَّةٍ حلوةٍ من عام 1985.... السماءُ نظيفةٌ، كأنها صبيّةٌ مُغرِيَةٌ خَرَجَتْ من الحمّامِ تَوّاً... قُرصُ الشمس يتأرجَح على قمة جبلٍ مُتَوّجٍ بالثلج، ينتصبُ قُبالَتَنَا في وادي خواكُورك. أشعّةُ الشمس صافيةٌ كالعسل... تُنَشِّفُ ما خَلَّفَه الشتاءُ من رطوبةٍ لاذعةٍ تَرَسَّبّتْ في العظام... الأرضُ تَنزَعُ رداءَ الثلجِ، فتفوحُ رائحتُها ..... تُذكّرني برائحة طفلةٍ، «أودعتُها!» هباءً أعمىً، كانت عندما تشبعُ وتدفَعُ ثديَ أُمَّها تلهو به وتُناغيه، أو تتخاصمُ معه فتضربه مثلَ قِطَّةٍ صغيرة تلعبُ بكرة الصوف...!

.....

بعد الغداء، دَخَلَ فصيلُ الأعلام في دهليز القيلولة...

نوبةُ الحراسةِ كانت من حِصّتي ذلك اليوم. جلستُ تحتَ شجرةٍ مُعمِّرةٍ، تتكِئُ على ظِلِّها . عَلّقتُ تَعَبي على شفرةِ زهرةٍ، أرخيتُ البندقيةَ في حُضني... وأدرتُ مفتاحَ الراديو الصغير في جيبي.

.....

.....

طائرُ السنونو الرشيقُ، لا يدري إلى أين يطير، مفزوعاً من شخيرِ القصف، حيثُ يرتَجُ الضوءُ مذعوراً مع كلِّ انفجار...

أُنصِتُ، أُرخي أجفاني في قلبي، وأُحَدِّقُ فيه، فأسمعُ...

ها هو الخوفُ يدُقُ طبولَه في صدري، أينَ أُخبئه؟

ثمَّ أسألُ نفسي لماذا الخوف؟ فالرصاصةُ، التي ستُصيبُني، لن أسمعَ صوتَها، والقذيفةُ، التي أسمعُ صوتَها، ستكونُ عَبَرَتني...

أيكونُ خَوفاً مِنْ مُخاطَرَةِ أنْ تَنظُرَ الصورةُ في المرآة..؟!

.....

.....

على السفح المقابلِ لَنا، قصفٌ متواصلٌ. فالقواتُ الإيرانيَّة تشُقُ طريقاً عسكريَّةً داخلَ الأراضي العراقية... أدلاّؤُها حُلَفاؤنا !!

اقتَرَبَ (أبو جعفر)[1] مني، يُخبرني أنه لم يستطع النومَ، فآثرَ سقايةَ مزرعةِ الخُضار....

يهتزُ المكانُ جَرّاءَ قذيفةٍ مدفعيةٍ سقَطَتْ على كَتِفِ الجبل، الذي بخاصرته نلوذُ... ننتَحي بأنفسنا خلفَ صخرةٍ عظيمة، فيواصِلُ (أبو جعفر) الحديثَ كأنَّ القصفَ ليس موتاً، بَلْ جملةً اعتراضيةً في كلامٍ أهَمّ.... لكنَّني أُحبُ بساطَتَهُ، طيبتَه وإخلاصَه وتفانيه، الذي لا

---

[1] إداريُ فصيل الإعلام المركزيّ، مهندسٌ زراعي تَخَرَّجَ من هنغاريا.

يباريه، إلا (أبو سُهيل)[2] خَفْقُ أجنحَةٍ، يقطَعُ الحديثَ.... أُتابِعُ سِرباً من الطيرِ مفزوعاً يغادرُ أعشاشَهُ، مَخابِئَهُ...

أرى شيئاً رمادياً يَلصِفُ في السماءِ يتّجِه ناحيتَنَا قادماً من عينِ الشمس.... دونَ صوتٍ أو ضجيجٍ، كأنهُ طائرُ القُطرُس، خبيرٌ بتضاريسِ الهواء، يمتطي ظهرَ الريحِ فلا يحتاجُ خَبطَةَ جناح....

ينقطِعُ حبلُ الكلام، وبحركة لا إراديةٍ، يمُدُّ كلٌ منّا يدَه إلى كَتفِ الآخر، كأنه يريدُ إيقاظَ نائم أو انتزاعَ حالمٍ وجَرجَرَتَهُ إلى اليقظة، ثم بحركةٍ سنكرونيةٍ تمتَدُّ السُبابتانِ نحو ذاكَ الشيء الطافي، الواضِحِ مثلَ نواياه الغامضةِ، حَدَّ الالتباسِ تماماً .....

.....

.....

لا تَعرِفُ السماءُ الـ«بينَ، بينْ»،

إما أنْ تُمطِرَ خيراً أو قحطاً،

رحمَةً أو عذاباً... هكذا تَعَلّمْنا!

أينَ أضعهُ الآنَ في هذه المعادلة..؟!

.....

---

[2] مهندسُ كهرباء، كان مسؤولَ قسمِ الهندسة في «صوت الشعب العراقيِّ» إذاعة الحزب الشيوعي العراقيِّ، أيام العمل الأنصاري، قبلَ أن «يجتهد!» في التعاون مع المحتل.. (ي. ع.)

لـم يُمهلـني برهــةً للتأمُــل، قـامَ بحـركـة رعنــاءَ فــي وادٍ ضيِّــقٍ نـسبياً، لا يـسمح كثيـراً بمنـاورةٍ انتحاريــة كهـذه.. انقـضَّ مثـلَ حجــرٍ سقَطَ من علٍ، اتكـأتُ علـى عصـايَ، نهضتُ وفتحتُ أمـانَ الكلاشـن، جَرَّنـي (أبو جعفر) من ظهـري وصـاحَ: «أمجنـونٌ أنتَ؟!»

بمـا لا يزيـدُ علـى خفقـةِ قلـبٍ، مَـرَّ مـن فوقنـا، واطئـاً، مُعتَدّاً بكفاءتـه، مُتَحدِّيـاً، حتـى بانـتْ بـراغي جـسم الطائـرة... ثـمَّ اسـتدارَ برشاقة دلفينٍ سيركٍ، كادَ يُلامِسُ الجبَلَ، توارى...

خَلَّفَ ما لا تُدانيه الصاعقـةُ من ضـجيجٍ، رجـرَجَ الـوادي، ابتلَعَـه جُبُّ السـماء!!

....

لــمْ تُنذرنــا، يـا هــذا، قبــلَ مجيئــكَ! كُنّــا أجرينــا مــا يلــزم لاسـتقبالك! فالقريـشيونَ والبــدوُ، عمومــاً، إن اقتربــوا مــن مَـضرَبٍ أو بيتٍ، حمحَموا وتنحنحوا، إشارةً لقدومِ ضيفٍ أو سـائلٍ!!.... تُـرى مَنْ تكون؟

....

عَقَـدَت الدَهـشَةُ لـسانَينا... أتكـونُ منـاورةً لتجـريبِ الكفـاءة؟ أم رسـالةَ إنـذارٍ:

«قـادرونَ أن نصِـلَ إليكم أنّـى شئنا!!»

أوَّلُ مــا خَطَــرَ ببــالي، أنــه جــاءَ يستكـشفُ موقِــعَ الإذاعــةِ ومُـرسلاتِها، ثم يعودُ بعدها ليُكمِلَ بقيَّـةَ «المهمّـة»!

أطلَقتُ على الفور رصاصتينِ مُتتابعتين، إنذاراً بالانتشار.... وبقيتُ أُحَدِّقُ بإتجاه قُرصِ الشمس. فقد يكرِّرُ المحاولةَ، بعدَ أن جرَّبَ في المرَّةِ الأولى...

لمْ يَطُلْ الانتظارُ حقّاً... ظهَرَتْ في الأفُقِ بقعَةٌ رماديةٌ تنزلِقُ معْ خيوطِ الشمسِ، باتجاهنا ....

تساءلنا: «ماذا تُراهُ فاعلاً هذه المرّة؟» لكنّنا لم نفكِّر بما يُمكِنُنَا أنْ نفعَلَ!... تَسَمّرنا! فالدفاعاتُ المُضادةُ للطائرات، من صواريخ ستريللا ودوشكا نُقِلَتْ إلى موقعٍ موصه لوك، على مبعدةِ ساعة عنّا، أملاً في تأمين الحماية لنا ولمقرِّ القيادة من هناك...

ما العمَل؟!

.....

شُلَّةُ رصاصاتٍ وأخواتها من الصواريخ والقذائف، مودَعَةٌ في «بيتِ النار»!، تَتَرَصَّدُكَ، تُحصي أنفاسَكَ... كيفَ تتصَرَّفُ مَعَهنَّ؟ كيفَ تُقنعُهن أنْ يُضربنَ عنْ الانطلاق؟! أنَّى لكَ أن تَتَعَلَّمَ السحرَ كي تَتحاورَ معهنَّ، هنَّ المصوّباتِ إليكَ، المُصرّاتِ على اندماجِ الحديدِ باللحم!!

أهوَ رصاصٌ ربّانيٌ، رؤومٌ، لا يُريدُ لكَ سوى أنْ تَتَوَحَّدَ معَ الأرض؟! كي تعودَ إلى سيرَتِكَ الأولى.... تراباً؟!

.... أيا زمناً لم ينوَجِدْ بعدُ،

أيا زماناً يأتي من خلفِ السحاب،

ها أنذا أُديرُ لكَ وجهي،

باسماً أنتظرُ الظُلمةَ،

باسماً أموت في زمنٍ أجرَبَ....

الحمدُ لنعمَته مَنْ أعطانا الليلَ!!... صمتُ الكونِ وسادتُنا،

والظُلمَةُ فوقَ مناكبنا سترٌ وغطاء.

فالليالي الحُبالى، يَلِدنَ ضُحىً مُجهَضاً، جاءَتْ إشاراتُه من مرصَدِ الغيب، فكَشَفَ العُلماءُ الثِّقاتُ عنْ سِرِّها: «ما منْ غودو، تنتظرْ! تَصَرَّفْ!!»

ماذا تنفعني لُغَةٌ صافِيَةٌ، خُلوٌ مِنْ بعثَرَةِ الدلالاتِ والرموز؟!

إذاً للريحِ سأُحَمِّلُ لُغَةً تَسوحُ فوقَ الرملِ، أُخفيها في أفواهِ حُداةِ الإبلِ الهائمةِ على وجهِ الصحراء.....

.....

.....

خيَّمَ هدوءٌ صارمٌ، مثلَ حجرٍ صَلْد...

لمْ نَعُدْ قادرينَ على الخوفِ واليأسِ أكثرَ مما فَعلنا، ولم يبقَ أمامَنا سوى المشيِ بخطىً رصينةٍ فوقَ أديمٍ منقوعٍ بالدمعِ والدم...

قلوبٌ أسيانةٌ، تبكي دمامَ زمنٍ لقيط...!

... الحمدُ لسلطانه مَنْ أعطانا ألاَّ نختار!!

فلو اخترنا، قد نكونُ اخترنا أخطاءً أكبرَ وحياةً أقسى، مَنْ يدري؟!

.....

.....

هـا هـو، مـن جديـدٍ يتزحلـقُ مُتَخفِّياً بعبـاءةِ «أبولـو»... تَـتَمَلَّكُني رغبـةٌ طُفوليَّـةٌ رافَقَتني حتى بداية المراهقَة، فـي الحصـولِ علـى «طاقيَّـةِ الإخفـاء»... وتجتـاحُني رغبـةٌ شـديدةٌ في أنْ أرى وَجْهَـهُ، وأتفَحَّـصَ ملامحَه، كيفَ يجلسُ في قُمرَته، وبيده «عصا القيادة» أمامَ لوحةِ تحَكُّمٍ تَلمِضُ فيها أضواءٌ صغيرةٌ، مختلفَةُ الألوان... بمـاذا يُفَكِّـرُ؟ أتُـراهُ يعـرِفُ أحداً منّـا؟ أو كانتْ له خُصومةٌ مـعَ أيٍّ منّـا؟ أيكـونُ أحَدُنـا «انتـزَعَ» فتـاةَ أحلامـه، دونَ أنْ تـدري أو يـدري؟! أمْ تُـراهُ فَقَـدَ واحـداً مـن أعزّتـه في «لقاءٍ» مع الأنصـار؟ أمْ تُراهُ لا هذا ولا ذاك، بل مَلاكاً يُنَفِّذُ مـا تَـأمُرُ بـه الآلهـة؟!!

.....

.....

يَقْـشَعِرُّ بَـدَني، وأنـا ألمَحُـهُ يَقتَـرِبُ منِّـا، كأنّنـا نُحَـدِّقُ فـي عـيونِ بعضٍ...

الناظـورُ يُؤكِّـدُ تآمُـرَهُ معَ «أبولو»، الـذي يسترُهُ بشعاعٍ من ذهب..

صـاحَ (أبو جعفر): «وين الستريلَّلا هسَّه...؟!»

.....

وقبلَ أنْ أُجيبه، انزلـقَ «الطائرُ» الغريـبُ مـن فـوقِ رؤوسـنا واطئـاً، واطئـاً جداً، حَسِبناه مَسَّ ذُؤَاباتِ الشَّجرِ، الذي راح يخـتضُّ، فيتلـوَّى مـا

جاءَ به الربيعُ من طريٍّ الأغصان، وأنه على وشكِ الانتحار أمامنا كأيٍّ طيّارٍ انتحاريٍّ ياباني، ممن كانوا يُسمَّونَ بالكاميكاتسا، حتى رأيناهُ بُقمّرَتِه، وأُقسِمُ أنّي رأيتُهُ يرفعُ يُسراه مُلَوِّحاً نحونا..

.....

.....

بخِفَّةِ طائرِ السنونو ورشاقَتِه يرتفعُ شاقولياً... صليلُ سيفِ مُحرِّكاته يذبحُ هدوءَ المكان.... وعندما يصيرُ فوقَ القمةِ، يتخَفَّفُ من بعضِ «حُمولته!» دون أن يُصيبَنا بأذىً...

.....

على موجة أفْ. أمْ 96 نسمعُهُ يبلِّغُ قاعدتَه بكلامٍ يُفتَرضُ أنْ يكونَ مُشفَّراً: «الشايب بعده نايمْ... شعر راسه كله أبيض.. لكن الهدية وصلته»!

وكان يريدُ بذلكَ أنَّ قممَ الجبال مازالت مُغطَّاةً بالثلوج مما يعرقِلُ أيَّ زحفٍ نحوَ المنطقة.. وأنَّهُ أنجَزَ مهمَّةَ القصف!

.....

.....

تباركتَ! عفريتاً من جنودِ سُليمانَ، يَمتطي الريحَ عاتيةً، يأتيه قبل أنْ يَرتدَّ إليه طَرْفُه..... وَصَلَتْ رسالتُكَ!!

شكراً كثيراً..

حَنين

بعد ما استبدَّ بها الشَّوقُ، اتَّصلَت بي ندى تلفونيَّاً من مراكش: «بابا، اشتقتُ إليكَ كثيراً، تعالَ وخُذني إليكَ حالاً!»

ثم صمَتَتْ قليلاً.. وعادَت بُنَيَّتي تَسأَلُني: «بابا ما هو الحنين؟ ولماذا نَحنُ؟!»

قُلتُ لها: .. الحنينُ، هو شوقُ النَرجسِ للندى.

... أرضٌ تَجلِسُ مَنفوشَةَ الشَعرِ، مُشَقَّقَةَ الوجه اشتهاءً لبَلَل،

... هو عَطَشُ البئرِ لحاملاتِ الجِرار،

... وتَوقُ الناعور لخريرِ الماءِ، موسيقى، كي لا يُدَوِّخَهُ حَفيفُ الريحِ في الدولاب، وهو نَفَقٌ طويـــــــــلٌ نَسيتهُ الريح، يشهقُ لَهْفَةً لِحَفنةٍ من عَويل،

والحنينُ فِعلُ ماضٍ ناقِصٌ عن رائحةِ زرعٍ بَهيٍّ الخُضرَة، كنتُ أتَمَرَّغُ به - ولا أعرفُ إلى اليوم اسمَه، بل رائحتَه - ذاتَ ضُحىً ربيعيٍّ بحديقةٍ عامة، عندَ معملِ «فتّاح باشا».. يومَها كانوا يُلملمونَ عوّاماتِ الجسرِ الطافي، بعدَ اكتمالِ بناء «جسر الأئمَّة» في الكاظميَّة.

... وللحنينِ رائحةُ «المزكوف» في «أبو نواس» مُضَمَّخةً بعطورِ النِّسوَةِ في شارع النهر،

.....

.....

بابا، بابا،...

.....

- والحنينُ، يا صغيرتي،

-..... بـــابـــــا ....!!»

.....

مَرَضٌ مُتَردِّدٌ لا يُعدي ولا يُميت،

... يُصيبُ مَن به مَسٌ من مكان، وهوَسٌ لمعنىً خالٍ من الزرَّكَشَة وزِحام التأويل،... وهوَ، لو تدرينَ، يا ندى، سلامي على «كشتبانِ» أُمّي، لمْ تَتَخَلَّ عنه رغم عوادي الزمن.. قالتْ إنها اشترتْهُ يومَ حَمَلَتْ بي، وراحتْ تَخيطُ «جهازَ النِّفاسِ»!

... هو وَجَعُ البحثِ عن فَرَحٍ مندَثِرٍ، بعيد،

... وهو ناتِجٌ عَرَضيٌّ لخوفنا من الكِبَرِ، يلاحِقُ خطيئةَ النسيانِ بذاكرةٍ تحتشدُ بصورٍ وأسماءَ، بعضُها من صنعِ الخيال...

... وهو ظَمأ المُستَترِ لضميرٍ مَعلومٍ، حتى لو كانَ ماءً يَرقصُ في سراب،

.. وهو فِلترٌ يُنَقّي زوايا الذاكرةِ مِمّا تَرَسّبَ بها من شوائبَ،

والحنينُ، يا ندى، رَجفَةٌ تَخُضُكِ عندما تواجهين بياضَ لوحةٍ وأنتِ تَهمّين بنثرِ نجومٍ، تكتظُ بها سماءٌ، تَفتَقِدينَها في المنفى،

«بابا، أنا لا أفهَمُ هذا الكلام، سأَلتُكَ عن معنى الحنين...!»

.....

الحنينُ، يا ندى، هوَ ما دَفَعَنا أنْ نَعودَ بنشيدٍ مَكتومٍ، باندِيرا روسًا!، مُتَسَلِّلينَ إلى وطَنٍ، حَسنِ التسمية، سيِّءِ المُسَمّى، وَطَنِيِّ القَهر، قومِيِّ النفاق، عُدنا، «مهاجِرينَ عائدين»!، يتَحَكَّمُ بنا انفصالُ الرمزِ عن الواقع، والألفاظِ عن معانيها،.. عودةٌ،.. تحريرٌ،.. إسقاطٌ،.. حريَّةٌ،.. عَدَالَةٌ...، مفرداتٌ لا تَفعَلُ غَيرَ أن تَتَمَلّى الشيء عن بُعدٍ، حتى بلا عَدَسَةٍ مُكَبِّرَةٍ أو ناظورٍ مُقَرّب!!، دون أن تَلتَفتَ إلى أقربِ الناس..!

أهيَ وعكةٌ لُغَويةٌ عَجِزَتْ عن تعريفِ الكُلِّيِّ بالجُزئيِّ؟! أم سحرُ رنينِ المفردة، الذي لم نُشفَ منه، وقضَّينا العُمرَ في الدفاعِ عن حقِّ اللعبةِ في استدراجِنا إلى المتاهة، وفي استدراجِها إلى فُكاهةِ لافتَةٍ لا يراها سوانا؟!

... نَعَم! كُنَّا أحراراً، بحريَّةٍ غيرِ حَمّالةِ أوجُه..أحراراً في وضعِ الخيالِ على الركبتين، دونَ المقارنةِ بين سِجنٍ كبيرٍ وصنوٍ صغير، كنّا كما تَفعَلُ المُتَصوِّفَةُ نطيرُ أبعَدَ من هُدهُدٍ في أقاصي السؤال...وكان فينا من كثافةِ الغَيمِ ما يَروي اليَبابَ لو تَقَطَّرَ، لو مَطَر. وفينا من نُدوبِ الظُلمِ ما يُغنينا عن طَلَبِ العدالةِ بِفَصاحةِ اللسانِ والتبيينِ والبيان.....

.....

« ... بابا، إذا لم تُجبني فوراً، سأُغلقُ الخطَّ..!!»

.....

الحنينُ، يا صاحبتي، نايٌ يبكي صدىً، وصرخَةٌ تأبى أن تَصِل، وهو هَسيسٌ، نَسمعُ فيه قَطَراتِ الماءِ، تُنَقِّطُها حنَفِيَّةٌ غيرُ مُحكَمَةِ الإغلاق،

.....

.. طِق، طِق، طِق، طِق...

.....

.... وإصغاءٌ لِخَطوٍ يَتَقَدَّمُ من البابِ، ولا يَصِل...

.....

... وللحنينِ صوتُ العَتمَةِ تَتَطَلَّعُ إلى وظيفةٍ حاسَّةٍ أُخرى لا تُتقِنُ الكلامَ، تَستَعينُ بطاغوتِ الأرَقِ، يُسبِّبُهُ سوءُ الفَهمِ الدائمُ بينَ الواقِعِ والخيال...

.... وهو خيطٌ من البريسم مشدودٌ بآلياتِ الغياب، غيابِ ما مضى وأضحى رمزاً...

... وهو جديلةٌ مجبولةٌ من ذكرياتٍ وصور مخيِّلَةٍ تتركُنَا نعومُ في بركةٍ من مفرداتٍ، من قبيلِ.. كانَ، مرَّ، عسى، ليتَ... تُلغي الحاضرَ في غياهبِ تخيُّلاتٍ موهومةٍ...

والحنينُ، يا سيدتي الصغيرة، إنْ طَفَحَ يستحضِرُ صوراً من الماضي وَيَتركُها تَسيلُ بِيُسرٍ، فلا تَستطيعينَ إيقافَها والتَطَلُّعَ إلى واحدةٍ منها، على انفراد، لأنها - ببساطةٍ -... تَنهَمِر.

يَعُزُّ على أبيك، يا ندى، أنْ يُوقفَ صورةً بعينها، صورةَ «البازبند» الجِلْدْ، يَومَ شَدّته الجدَّةُ على ذراعه ليَصونَهُ من كُلِّ مكروه... كانَ أبوك ما زالَ صغيراً، لم يتعلّم فَكَّ الحرف بعد..

وقد آلى الصغير على نفسه، إذا ما كَبُرَ، أنْ يفتَحَهُ ويقرأ أسرارَ الحِرز مكتوبةً بحبرِ الجَوهرِ، وقد لُفَّتْ بعنايةٍ في قطعَة قماشٍ، أودعوها محفَظَةً جلديَّةً، تُشبهُ إلى حَدٍّ بعيدٍ ساعةً يَدَويّةً مربعةَ الشكل.... لكن جرى الزمان جَرياً، كَبُرَ الصغير وكَبُرَتْ هُمومُه، أحلامُه، وأوهامُه، وما تَسَنَّى له الوقوفُ على سرِّ «البازبند»!!

... الحَنينُ هُوَ حاجَةُ الصَحوِ إلى غيبوبَةٍ قريبةٍ من شَبَهِ الشيء بغائبٍ، لا مَرئيٍّ، يَستَعصي على المناورةِ والتَعريف.. ففي هذا الزمان يَصدُقُ الظلُّ، ليسَ البيان،

... الحنينُ يَهبطُ عليك حُبَيباتُ ندىً، لا هوَ شعرٌ ولا هُوَ نَثرٌ، لا أرضيٌّ، ولا سَماويٌّ، لكنهُ يَطيرُ بك وتَطيرينَ به..... فإذا نَصَبتِ له فَخّاً من دفتَرٍ وقَلَم، قَد يَجفَلُ، لأنهُ لا يُحِبُّ الإفاداتِ ولا المحاضرَ ولا التَقارير.... ولأنَّهُ لا يستطيعُ التواطؤَ إلاّ معَ مفرداتٍ لم تَقُوليها ...،

... الحَنينُ هو إعرابٌ لدواخلِ الغُربة في ظلِّ الصدى وحواشي كؤوسِ الهاجسِ، التي لا تُتقنُ التدوينَ بلا أخطاء...

... وللحنينِ طَبعٌ قُرَيشيٌّ، لا يأتيك على موعدٍ، ولا يَطرُقُ باباً،.. ينزرِعُ أمامك، هكذا، دونَ إستئذان... لكنه كريمُ النَفسِ، يأتيك دونَ مُقابلٍ، ولا يطمَعُ حتى بِشُربَةِ قهوة...

... والحـنينُ يَتَزَيَّـا بالغـامِضِ، لا يُلمَـسُ ولا يُتَـذَوَّق.... يَتَحَـرَّشُ باللا مُنتَظَر....

.....

.....

تووووووووووووووت.....

.....

ندى قَطَعَت الخطّ....

بغداد

لسمير ابن شط الكريمات،
الذي سَهَت عنه المفخخات!!

مُتجاوِزاً عارضةَ منتصفَ الليل، حيثُ ذئابُ الأرَقِ تَنهَشُ لَحمَ نُعاسي، يتزحلق الزمنُ إلى بئرٍ من طنين، يروحُ يُرتِّبُ أوضاعه ويلملِمُ حاجيّاته قبلَ طلوعِ الصبح... نامَ العجاجُ على السطوحِ، في الأزقة والدرابين... وأنا لا أزال أُقلِّبُ السكونَ المخاتلَ، أُفتِّشُ عن عبارةٍ نسيتُ أنّ أُدوِّنَها، أُبحلِقُ في شاشة الحاسوب عَلَّها تُومضُ برسالة....

مترنّحاً في زورَقٍ وسطَ عَماء الليلِ في برلين، أُجالسُ نَفْسي وأُحاورُ وحشَتي.

أُدجّنُها بكأسِ «باخوس»... أسرحُ وأتسكَّعُ في ميدان «أنا»ي، أبحثُ عن لغةٍ تَفضُ حياءَها، وتظلُ شفيفَةً لا تَخزُ لَمعَةَ العين... لغةٍ لم يطأها قلمٌ، لغةٍ أتناءى بظلالِ مُفْرَداتها عما ألِفَته القواميس... لغةٌ أُقيمُ فيها وتُقيمُ فيَّ... أبحثُ فيها عن مأوىً جديد لقَلَقي، تُريحني من العَدْوِ في صحاري ظَمأي... أُلاحِقُ فيها خطيئةَ النسيان بما تَبقّى من ذاكرةٍ، فأحشِدُ جيوشاً مبعثرةً من الصورِ والأسماء...

فثباتي على الأرض لا علاقةَ له بأنني لا أمتلكُ أجنحةً أو أنَّ وزني، لا سامحَ اللّه!!، مُفرطٌ، بلْ بسببِ فكرةٍ ضَيَّعَها آخرونَ، تَمَسّكتُ بها، «قَدَراً» كي لا أكونَ مثل سنديانة عَرّاها الخريف فغادَرَها الطيرُ، أو أنْ أموتَ من بَهتَة النسيان!

... أُعَلِّلُ نفسي بأنني مازلتُ أهوى الغناءَ في الحمّام والغابة، أُمرِّنُ فيهما حنجرَتي على الصُراخ، عندما يَتَلَفَّعُ ما حولي بعباءةِ الصمت... فما دُمتُ أضجَرُ من الضوضاء والإطناب واللا معنى والابتذال، يكفيني هذا دليلاً على أنّني لمّا أزلْ أحيا ولستُ وحيداً!

❖ ❖ ❖

«ماذا فَعَلْنا»، يسألني سمير، ابن الشط، «لنكون، كلَّ يومٍ، حِملانَ أضاحٍ لعمى الجهالة وكلِّ فنون الخَبَلِ المعادي للعقل... هذا الغولِ، الذي حوَّلَ الناسَ إلى كائناتٍ تلوذُ بظلامِ زوايا البيوتِ، تَتَفَنَّنُ في اجتراحِ الحِيَلِ - المُعجزات، للإفلاتِ من الموتِ بأيِّ ثَمَن؟!

نموت عطشاً! هل يُصدِّقُ العالم أن **بلاد الرافدين**، وبغداد، التي كانت أم الدنيا طُرّاً، تموتُ عطشاً؟؟!!»

....

ـ «دوغلاتو براتو[1] خيطُ ماءٍ من سُرَّةِ السماء» أقولُ له.

---

[1] **دوغلاتو هي باللغة الأكَّدية، دجلة، وتعني العظيمَ، الجبارَ، الهادرَ... بُراتو: الفراتُ، وتعني الزُلال، الصافي، الرقراق... ي. ع.**

يـرُدُ علـيَّ: «خـيطَ مـاءٍ، أضـحت دجلـةُ والفـراتُ حقـاً .. ولكـن لـيس مـن سُـرّةِ الـسماء، إنمـا مـن زبالـة ونفايـاتٍ عافَهَـا الـسَمَكُ... تـصوّرْ بغـداد تمـوتُ كـلَّ يـوم عـدة مـرّات، لـيس بفعـلِ المُفخَّخـاتِ والقصفِ والجنـونِ فقـط، إنمـا تمـوتُ عَطَـشَاً أيضاً ..! نَنـهرُ الـصغارَ كـي يَلزَمـوا الـصمتَ، حتـى لا يفوتَنـا مهرجـانُ الغِبطَـة! عنـدما تبـدأ غرغرة المواسير إيذاناً بقربِ وصولِ شـريانِ حياتنـا، فُضلَةً ممـا بقـيَ مـن وضـوء سـلاطينِ الآسـتانة!!.. دجلـةُ، يـا صـاحبي، مـا عـاد ذلـكَ، الـذي كنَـا نحـرثُ مـاءَهُ بقـاربٍ، مـن جـسر الـشهداء حتـى جزيـرة «أُمِّ الخنازير».. نعودُ بعدَها للكريمات بحصيلةٍ من السمك، نبيـعُ بعضَها لـضمانِ «الـزحلاوي»! ونـدفع بالبقيـة مـع عَلُّـوش، ليـأتي بعـد سـاعة، عند شِرِيعَةِ الشيخ عبد الله، بصينيةٍ من الكريمجـاب!! هـي العـشاء والمازة»...

....

ـ ولكنـها تَظَـلُّ بغـداد، الـصَبَوات والـصِبا والتحـدّي، بغـداد العلـم والثقافة والـ..

يُقـاطعني: «دعـكَ مـن الأحـلام، يـا صـديقي، بغـداد تنتحـرُ اليـومَ وتنحَرُ أهلَها بسيوفٍ صَدِئةٍ ومُفخَّخاتٍ جبانة.... تَشهَق المدينـةُ كـلَّ يومٍ بنـافورةِ دم... وتختنـق بأسـوارٍ، تُفقِّس جـدراناً للقطيعـة والكراهيـة بـين الناس، بعد أن سقطَ جدارُ بـرلين..! بغداد أضـحتْ متواطئـةً مـع المـوتِ والقَتَلَةِ، وباتَتْ تتربَّصُ حتَّى بأحلامِ النَّاس....

ـ بغدادُ عُرس مرايا السمَر والسهَر، قَمَرٌ من ماس وفِضَّة.. «هي في الليل من الجو، أجملُ سجادة فارسية ملضومةٍ من ضياء»[2]

«هذا كلامٌ لا علاقةَ له ببغداد، كما نراها ونعيشُها، نأمةً نأمة.. بغداد جُنَّتْ، ومن فرط جُنونها، راحت الناسُ تجترُ وتتجشَّأُ عقوداً خَلَتْ.. تحنُّ لشوارعَ وفضاءاتٍ غيرَ مُقفَلَةٍ على أهلها، ولا تُقَطَّعُ أوصالُها آلافٌ من كتلِ الخرسانة الهائلة، الصمّاء!

الناسُ ترتاب وتتوجَّسُ من بعضٍ، فتتكفيءُ على مخاوفها، وقد غادرها أيُّ تصوُّرٍ للمستقبل... وهو توطئةٌ خطيرةٌ لموَاتِ المُدُن والحواضر، في زمن الخراب، بمعَنَييه العيني والمَجازيّ...»

ويصرخُ سمير، فتجيءُ صرخته متكَسِّرةً.. حَشرَجاتٌ تَتَخَبَّطُ باحثةً عن نُتفَةِ أملٍ للبقاء في هذه الحياة:

«متى يموتُ الموتُ كي نحيا؟! هل هناكَ أملٌ في الخلاص من هذا الحضيض وطينِ الخراب»؟

أقولُ له: «لا تنتظروا قطراً من سماءٍ عقيمة، أنتم مَنْ...!»

فيردُ عليَّ في هُزئِه المعهودٍ، يترنَّحُ على خيطٍ بين دمعةٍ تحَجَّرَتْ في مقلته، وقهقهةٍ تناثرت في خطوط الهاتف:

«أتدري، يا صاحبي، أننا غَدَونا مَسخَرَةً؟ أحدُ جنود المارينز،

---

[2] **توصيفٌ لبغدادَ، على لسانِ أوَّلِ قبطانٍ في الخطوط الجوية العراقية، نقلته لي ابنته في لقاءٍ عابرٍ أثناءَ الاجتياح الإسرائيليِّ للبنانَ، عام 1982، اعتماداً على مشاهداتِه لعواصمَ ومدنٍ كثيرة في العالم مرَّ بها بحكمِ مهنتِه. ي. ع.**

مُدَرَّعٌ بالكامل، قال لي في ساحة الأندلس، وأنا أهِمُّ بالعودة للبيت بعد أن اشتريتُ خبزاً، قال ساخراً: «**لا أُصدِّقُ أن يكون هذا الشعب سليلَ سومرَ وبابلَ وأَكَّد... هذا بَلَدٌ يندثرُ في قيامةِ الخَبَل..**» فقلتُ له:

«صه يا هذا! تلكَ صنيعتُكُم، استبدلتم ديكتاتوريَّة فرد بديكتاتوريَّةِ الغيبِ والخرافة... فها نحن نحصد اليوم ما زرعتموه...!!»

أدرتُ له ظهري ومضيتُ.... أتحسَّسُ قَفاي، لأعرفَ إن كان أطلقَ عليَّ رصاصةً.. ومِنْ أينَ واتَتني الشجاعةُ لأقولَ لآلة الموتِ الصمّاء هذا الكلام!! لكنَّ لافتةً لَمَحتني وقرأتْ دواخلي... شكرتُها، فغَمَزَتْني!!»

ثمَّ يروحُ سمير يُوغِلُ في وَصفِ الأنين، كنايةً عن حبِّ الحياة... وكيف يتحوّلُ الإنسان بفعلِ آلةِ الموتِ والرعب، إلى كائنٍ عُتمةٍ، صُنوَ الخُلْد، يَعتاشُ على فُتاتِ ذكرى، في امتحانِ امتهانِ الكرامةِ والجسدِ.... امتحان مقاومة النفي والعُزلِ والمَوات.. في أقصى حالاتِ جنونِ القتلِ والانتحار، التي تَملَّكَت الناس، وسط غيابِ العقل وحضورٍ «مُجسَّدٍ!» كثيفٍ للخرافة...

ويسألُ مُتهكماً: «ماذا يمكننا أن نصنعَ من هذا الخراب؟!»

ـ سمير، صُنْ فَرادتَكَ، هيَ سلاحُك، تُدافِعُ بها عن نفسكَ، ضدّ العموميَّة والمجانيَّة والابتذال، ضد «القطيع»، فهذا خرابٌ نرفُضُه، لأننا نُحبُّ الحياةَ والجمالَ، واترك لهم جنَّتَهم...

شحيحاً، يأتيني صوتُهُ من بعيد، كما من خاصرةِ بئرٍ مهجور:

«انقطعَتِ الكهرباء وليس لدينا بنزين لتشغيلِ مولِّدة الكهرباء»!

... بانتظاري حُلُمٌ مؤَجَّلٌ، سأتحاورُ معه في ما قُلتَ...

مَنْ نحنُ ؟!

أحَقّاً نحنُ المارقونَ على المألوف؟!
مُلحدو الوجعِ... كُفّارُ اليقينِ..؟!
كُنّا عُراةً، سَتَرَنا الأهلُ بالعِزّةِ والكرامة[1]،
نحنُ، الذينَ سَفَحنا الخُطى في دروبٍ وعِرةٍ،
نجوبُ مجاهيلَ التجريبِ، نستَعذبُ حلاوتَه؟!
لا نَدري كيفَ نَفقَأُ عينَ الوحشةِ، حتى لا نموتَ بلا شاهدةٍ..!
نَتَسَمَّعُ حفيفَ نَشوَةٍ، تَدُبُّ فينا كالخَدَرِ.....
أباطِرَةَ الأمَلِ، كُنَّا،
فُرسانَ السرابِ، كُنَّا،
حتى غَدَوْنا نرعى حُلُمَاً
في سهوبِ الأبجدية
وروابي الرطانة،

---

[1] مُفرداتٌ تستسلمُ أمامها المعاجمُ، لأنها عَصيَّةٌ على التوصيف، مثل الله والشرف والعار، لذلكَ لا جَدوى من البحثِ عنها في قاموسِ «الليبراليينَ المُحدَثين!»

صِرنا كَرادِلَةَ التبرير،
سَكِرنا بالآتي، فنَسينا «الآن»....
.....

فاتَنا المستقبلُ فأمسكنا بِطارِف «عَلَقِ» الأئمّة والصالحين، لمْ يبقَ لنا مَنْ نَنْذُرُه بعدَ مطاحِنِ الأوهام الهوجاء، غيرَ أنْ نفتدي المأفونينَ والمعتوهينَ والمُشَوَّهينَ «بالروح.. بالدم»، علاقةٌ مُلتَبِسَةُ التفسيرِ والتفاسير..

أقمارُنا تَظلَمُ في المُحاق، تَبخَلُ على عِبادِ اللّه بفضَّةِ النور،
لا تُبقي غيرَ بُقَعِها السود - Black Spots
سماءٌ بليدةٌ، لا تَشي بشيءٍ.. مثل قدحِ ماء،
.. أرضُها ملأى بحُفَرٍ، هيَ فِخاخٌ قاتلَة،
تُرى لِمَنْ؟!
لا نَدري، مَسُوقاً بسَوطِ مَنْ، عابساً يُشرِقُ فجرُنا ..
مُرهَقةً من دامسٍ، تنوَلِدُ صباحتنا،
نُنصِتُ للُهاثِ الثواني، ونَحدو شمساً خلفَ متاريسِ المسافة..
ماذا نفعَلُ بندوبٍ ساديَّةٍ، لا تُبارِحُنا، كظلِّنا؟!
كلما انهدَّتِ الذاكرةُ تَعبى، تعودُ (الندوب) تَنكأُ جِراحَنا،
تَستطِيبُ النزيف!!

❖ ❖ ❖

تَبَّاً لأرضٍ تَنِزُ نفطاً، وتَشِحّ على أهلها بالماء،

أرضُ تُفرِّخُ مسوخاً، محمولةً بعرباتٍ رباعيَّة الدفع،

مُدُنٍ خرابٍ، وشوارعَ مَجدورةٍ،

عرباتٍ تَجُرُ الشيوخَ لحَتفهم.. دونَ صهيل،

أرضٍ شابَ أطفالُها، من ذهولِ هزائمَ، بيعتْ لهم نصراً.. دونَ إيصالٍ لإرجاعها أو استبدالها!!

أطفالٍ يلهونَ بالرصاصِ وعُلَبِ قنابلَ فارغَة، إلاّ من اليورانيوم المُنضَّبِ...

أرصفةٍ تَعُجُ بالباعةِ.. حتى باعةِ «يقينٍ خاملٍ» وأملٍ مستخدمٍ «بايِر»!

بلا تاريخِ صلاحيَّة... يُفيدُ لكلِّ زمانٍ ومكان! مُعبئاً بعُلَبٍ أنيقةٍ من «بالاتٍ حداثيّة»!

نَتَلفَّعُ بخِزيِ أمجادِ «القحطانيين!» ملايينَ من الأرامل والأيتام والمُعَوَّقين، نمتطي انتصاراتٍ مهزومةً وخراباً عميماً...

نَنتَصِرُ في الرُؤى على أعداءٍ، ينتصرونَ علينا..

نساءٌ تَتَقَرَّحُ تضاريسُ أجسادهنَّ شوقاً لِمَنْ لمْ ولنْ يأتي، فيروحُ الشَبَقُ ينتحِرُ في أسِرَّةٍ خاليةٍ من حبيب..

أُمَّهاتٌ يعشنَ كَمَداً لفَلَذاتهنَّ تَنهشُها المنافي والمَهاجرُ والحنين،

نَهمِسُ مع أنفُسِنا، لنتأكّدَ إنْ كانَ بوسعنا أنْ نفعَلَ شيئاً يَدُلُ علينا...

نُقَلِّبُ «خَمـرَةً»، عَتَّقناها في سراديبِ الأمس، فلا نستسيغُها ...
نصوغُ كلاماً عشوائيّاً، كالقصفِ المدفَعيِّ..
لُغةٌ زَلِقةٌ.. حَمّالةُ أوجه... نَستهجِنُ تفسيرَها بما لا نشتهي!
.....
مَنْ يَدري؟
قدْ تكونُ أخطاؤنا الكثيرةُ، هي التي أنقذَتنا، غيرَ مَرَّةٍ، لأننا إرتكبناها، كَسَهمٍ طائشٍ، بتوقيتٍ خاطيءٍ..! مثل موجةٍ، تَرتَجِلُ رعونتَها بعفَويَّةٍ، دونَ تخطيطٍ أو إصرارٍ مُسبَقٍ على مَحوِ قصَصِ الرملِ وقِلاعه..!
صحيحٌ أنَّ الخروجَ من «دورةِ الحياء»، ليسَ كالدخولِ إليها !!
لكنْ، ماذا سنفعَلُ معَ مَنْ لا يُريدُ أنْ يسفَحَ قَطرَةَ نَدَمٍ واحدةٍ؟!
.....
.....
مُنذُ كلكامش، كُنّا نبكي غُربَتَنَا..
في «الداخلِ!»، جَفَّتْ مآقي «البعض» من بكاءِ غُربةٍ، مُقيمةٍ كالآفة...
كلٌ له غُربته، دونَ تَنَطُّعٍ أو مُزايداتٍ!
إذاً.. «نحنُ مُتساوون»!!

أهِيَ خطيئتي ؟!

روبن هود، يا روبن هود!
لماذا جئتَ تُفسدُ علّيَّ شيخوختي وتُحرّض صغيرتي؟!
دَعْهَا على جفون الغيم تغفو.... بريئةً صافيةً كقطرةِ ندى!
لماذا تسخَرُ من شَيْبي ومن وَجَعي!
مَنْ جاءَ بكَ تحملُ سراجَ المغيبِ وكؤوسَ الشروق!
أتُراكَ جئتَ تبحثُ عن سهمٍ أطلَقتَه بلا هدفٍ... ومساءٍ ضَيّعتَه بلا فجر...؟!

يا روبن هود، أنا واللّه ما وشيتُ بكَ عند لورد نوتنغهام[1]
أنا مثلُ القناطرِ رأتْ خَطوَكَ، عَرفَتكَ وحفظَتْ سرَّك...
أنا مثلُكَ لا أُحبُ اللوردات طُراً، إلاّ لورد بايرون[2]...

---

[1] غريمُ روبن هود اغتصبَ إمارة نوتنغهام وأغلَظ في تجويع الناس وزيادة الضرائب مما اضطر أعداداً متزايدةً من المُفقَرين إلى الالتحاق بروبن هود في غابات شيروودز، الذي كان يغزو الأثرياء ويوزِّعُ ما يحصَلُ عليه، على أتباعه.

[2] شاعرُ الرُومانسيَّة الإنكليزية، الذي كان يدعو لحريَّة الشُعوب ونُصرتها في سبيل الانعتاق. ولهذا الغرض غادَرَ بلادَهُ بداية عام 1823 ليشاركَ اليونانيِّينَ في حرب التحرير من السيطرة العثمانيَّة. وبعد عام توفي في اليونان بسبب البرد.

أنا فقيـرٌ، يا روبن، ما غَصَبتُ مُلكَكَ، ولا مُلكَ أحد .. أنا مثلُكَ أُحبُّ حرِّيَّتي! ... ومن ضَبابِ شيروودز الكثيفَ أَندفُ لحافاً لصحبكَ في ليالي البرد ....

اتركني أقضمِ الحزنَ لحالي... أُكرِّز حَبّاتِ زمانٍ لقِّيط، وأخبُز أرغِفَةَ الوجعِ لعصرٍ بلا رحمَةٍ، عصرٍ بألفِ مُستَبِدٍ ومُستَبِد .....

....

....

تَهُزُّ رأسَكَ غيرَ مُصَدِّقٍ؟
سأفتحُ بابَ صدري لأُريَكَ ما تقَطَّرَ به من وَجَعٍ،
وسأرمي لكَ قلباً مطعوناً مريضاً،
.. وأُدحرجُ قمَراً أصفَرَ،
تتلَهَّى بهما، كي لا يضجُرَ قوسُكَ والنشّاب....
لا ...! لا ...! تَمَهَّلْ يا روبن، فأنا لستُ كئيباً، بلْ حزيناً من هذا الزمن السَّفِيه...

....

علينا هَجَمَ «التتارُ» وقبائلُ الخُرافَةِ والدولار،
فَعَمَّروا بلاديَ بالخرابِ والدمار،
خَنقوا الأُفقَ بظلمَةٍ بلهاءَ من غُبار...

.. بالتمامِ وبالكمال، بالشمعِ الأحمرِ ختموا وصايا البراءة، لتندلِعَ ألسِنَةُ العاهرينَ، حتى يصيرَ الوفاءُ موبقاً، وتغدو الوطنية

دوغما عمياءَ... فأتناءى كأنـي ما سَمِعتُ وما رأيتُ... حتـى يلفُظني الأقربون، رُغمَ صداقةٍ عميقةٍ كالفجوة، كالهُوة....

فأقولُ اللّهَ! اللّهَ ما أعظمكم في الطِّعانِ والكمائنِ، والتسطيرِ، والألحانِ والأوزانِ والألوان... أنتم عَطيَّةُ السماءِ لنا، نحنُ حفنَةُ «أمواتٍ» تدبُّ عليها إلى يومَ يُحشرونْ!!

خطيرٌ هو الجُحودُ المُضمَرُ، يا روبن، أما الوفاءُ الفصيحُ، فإنه عُرضَةٌ لكل السيوفِ والسكاكينِ الصَدأة...

.... كنّا عُصبةً من الأشاوسِ، الأماجدِ، الأحامدِ، عندما رَفَضنا ما بِخَزنَة السُلطان...!!

لكنْ، يا لوَيلتِنا انفَرطنا ...!

سيستحي الشهداءُ مِنَّا طولَ مَماتهم، حتى نَجِسَّ جراحَنا الساهِرَةَ، فيطلَعَ فجرٌ نُطَيِّبُه بالغار!!

....

....

أحياناً، أصحو، يا روبن هود، فلا أدري لي اسماً أو وطناً، أتَريَّثُ عندَ بابِ غُرفتي عَلَّ أطرافي تُلقي مَرساها في قلبٍ يَدُقُّ مثلَ طَبلٍ أجوَفٍ... قدْ يكونُ يوماً مكروراً من أيّامِ هَبائي، يوماً نَسَجَتْهُ سماءُ برلينَ، ثوباً ليومٍ تافِهٍ، مَزَّقتُهُ أمسِ ورمَيتُه لزبالةِ الساعات...لأنه يومٌ كاذبٌ لقيط....

❖ ❖ ❖

أعرفُكَ يا روبن هود يومَ كُنتَ تُنشِدُ لضفائرِ الليلِ أغانيكَ، فَيَهُدُّ الوسَنُ لورد نوتنغهام....

أنا أعجِنُ وَحشَتي بظلمةٍ أستنبِتُها من ستائرَ غليظةٍ مُوصَدَةٍ، كي لا يَتَسَلَّلَ ضياءٌ مُخادِعٌ لنهارٍ أخرَقَ، بلا أمَلٍ.. نهار حزنٍ ضريرٍ، تَسوقُهُ ريحُ عَفَنٍ، نهارٍ ضَيَّعَ صفاءَ بياضِ الثلجِ...

.....

.....

.. وبعدُ، يا روبن، ورغمَ كل شيءٍ، فأهلُنا طَيِّبون، صحيحٌ أنهم لا يُبارَوْنَ في المفاخرَةِ والتَبَجُّحِ، لَهُمْ أَلسِنَةٌ ذَرِبَةٌ،

بجَلجَلَةٍ، يضحَكونَ، لو تَسنّى لهمْ،

تُلَعلِعُ أَصواتُهمْ إنْ تحادَثوا،

يَقتُلونَ، يَسرِقونَ،

يَشربونَ، ينكحون،

ويتجشَّؤونَ عندما يشبعون... تماماً مثلَ بقيَّةِ البَشَرِ!

لكنهم طيبونَ عندما ترتخي قَبضَةُ الظُلمِ!

يؤمنونَ بالقَدَرِ والخُرافَةِ وقيامِ الساعةِ، لكنهم يزنونَ ويَحُجّونَ، يُنافقونَ، يمالئون ويكيدونَ، تماماً كبقيةِ الخلقِ!

.. ماذا يفعلونَ في زمنِ القحطِ والانحطاطِ والخرابِ..؟!

ماذا يفعلونَ غيرَ أنْ يتناسلُوا، فيولَدَ الخرابُ منْ جديد!!

.....

أتَـدري، يـا روبـن هـود، أنَ هـذا وضـعٌ أشـبَهُ بِقحيـبٍ، طامـثٍ، لا يُطَهِّـرُها حَمـلٌ ولا غَـسلٌ... ملعـونٌ مَـن يُـضاجِعها .. مَلعـونٌ مَـنْ يُطاعِمها .. مَلعونٌ مَنْ يُعاشِرُها أو يُماشيها ...

.....

يُـريدونَ لـي أنْ أُغنِّـيَ مُسمَلَ العينين... لكني لستُ ابنَ بُـردٍ أو أندريا بوتشيللّي... أنـا أغفـو محتضناً قيثارتـي، هَـرَبَتْ منِّـي الخمسُ الرؤوم!!

فكرةٌ طَوّحَتْ برأسـي.. أثـوبُ لـوَحدَتـي.. أتَطَلَّعُ لسماءٍ غَبـراءَ في برليـنَ لا تَـشي بفَـرَحٍ... فأحبـو لـذكـرى شـبابٍ قَـضَى، أتوسـلهُ يُقرِضُنـي بعضاً مما كانَ لـي، كـي أزهـوَ من جديد ... لكنْ...!

.....

لكنّـي أنصبُ شباكـي، لأصطـادَ اللحظـة.. وأُوغـلَ فـي مُساءلة «أناً» تَلوبُ.... وحينَ يجـيءُ الليـلُ وتمتَصُ شوارعُ المدينـة الرعنـاءُ، كـلَّ الـضجيج، أمـضي بهـدوءٍ بـاذِخٍ، مـا اسـتطعتُ، فأدخـلُ تحـتَ جلـدي، أتَـشَـرَّبُ أنفاسـي، أُنـادِمُ ظلِّـي فـي أكواريـوم الـسمك... يـروحُ يغـسلُ جَبيني، يُنحّـي النظّـارةَ عنّـي، فـأراهُ يمسـحُ دمعَـةً تَحَجّـرتْ فـي مُقلتي، فأروحُ أسَّاقَطُ حَبَّـةً، حَبَّةً مع فُتات طعامِ السَمَك!

ربمـا وَشَـتْ بِـيَ الأغنـام، فـي سِـنِيَّ نحـوَ الـسبعينَ مـشبوهةَ القصدِ تَعدو، وتطفو، فتهوي في سَعيرِ قرارِ الحنين، حتى تـأتي خيـولُ عُصبَةِ الشيطانِ، بأجنِحَةِ بَجَعٍ، تسفَحُ دمي المُتَخَثِّرَ فوقَ قُطنِ الغيم.

.....

لكَ المُلكُ، يا روبن هود، في ناصيَتِكَ البرونز بنوتنغهام...!

رَبعُكَ يقولونَ عنّا شرقاً، لكنّي عندما أَمُدُّ لجارتنا الآسيوية، الشهيِّة، البَضَّة، مثلَ حوريّة، على حبلِ الغسيلِ لحناً شرقياً منزوفَ القرارِ، قاسيَ الإيقاعِ.. يُورِقُ في روحي أدغالاً لا أقوى على توصيفها، تروحُ تَسدُّ الشبّاكَ منزعجةً، فأَعجبُ لتسميةِ «الآخرِ» لنا شرقاً!!

.... قلْ لي، باللّه عليكَ يا روبن هود! لماذا تهيمُ كلُّ الدنيا بغيرنيكا .. وعندنا كل يومٍ «غيرنيكا»؟؟

أهوَ عيبُنا شرقاً؟؟

لستُ أدري!!

سؤالٌ أُبعثِرُهُ في العراء، ليس إلاّ!!

.....

والآنَ، أنصَحُكَ أن تَعودَ إلى منَصَّتِكَ البرونز في نوتنغهام، فهذا زمنُ «السُوق»! خُلوٌ من زنابقِ المخيِّلَة...

عُدْ قبلَ أن يُلحقوكَ بسبارتاكوس!

عُدْ كي لا تَموتَ، لأنّكَ بنا تَحيا!

اترُكْ لي صغيرتي، هيَ زهرةُ اللوتس في بحيرةِ وحشتي...

رأيتُها في إحدى الرؤى تَحلُّ رباطَ الحصان «أبا البوني!» كما تُسَمّيه!.. تنقَلِبُ العَرَبَةُ ومَنْ عليها ...

ـ «لماذا فعلتِ هذا يا ندى؟

– لأنه تعذيبٌ غيرُ مُبَرَّرٍ لأبي صديقي الـ «بوني»!

ـ قلتُ لها «ما لكِ أنتِ! إنهم ينقلونَ حاجيّاتهم!»

– لماذا لا يستأجرونَ سيارةً، ويتركونَ أبا صديقي، دونَ إزعاجٍ؟

ـ قد لا يكونُ لديهم كفايةٌ من المال لذلك...

– ولماذا؟

فَلتَتْ مِنِّي مُفردةُ «فقراء»!

– «بابا لماذا يوجدُ فَقرٌ؟»

.....

.....

قالَتْ: «اليومَ سأستدعي، في المنام، صديقي روبن هود ليُساعِدَ الفقراء...!»

.....

املأ جِرابَكَ بما شئتَ من غرائبِ هذا العصر الكلابي، وعُدْ من حيثُ أتيتَ يا روبن هود... فأنتَ فارسُ النقضِ، لا الصفقاتِ والمساومات!

... أما أنا فسآخذُ بُنَيَّتي إلى البحيرةِ القريبةِ منّا، نلهو بالشَكِّ ونلعبُ، فنرمي اليقينَ في الماء!!

وطنٌ يُضيره العتابُ، لا الموت!

تَمهَّل! يا وطن النَّعام يهربُ من خَطوِنا ... فلديَّ كثيرٌ مما لم أقُله بعد ..!

.. بفضلكَ، يا وطنُ، أُصبِتُ بلفظةِ «لاجئ»، هي لفظةٌ تسري في الشارعِ الألماني بسُرعةٍ مثل عدوىً!! فَتَروحُ تحتمي بمرجعيّةِ الوطن.. «هناكَ»، مقابل «هنا»! كأن تقولَ، دون وَعيٍ، ..كانَ لنا بيتٌ، له شبابيكُ، تُطلُ على حديقةٍ صغيرةٍ... ما كنتَ تُتقنُ الفرَحَ به، مثلما تفعلُ بذكراه الآن... وإذا ما قُيِّضَت لك العودة، لن تجده... قد تستردُ شبهاً به! هناكَ، حيثُ أرخيتَ ظلَّكَ، وكَسَّرتَ الخرافةَ... حتى رحَلتَ من نفسكَ إلى ما ليسَ فيها ....

ـ أجبني، قُل لي مُبرِّراً للفرحِ بذكراك...!

أَتَذكُرُ عندما كُنتُ أقطعُ المسافةَ من الكاظميَّةِ حتى الباب الشرقي مشياً، لأنَّ في جيبي عشرةَ فُلوس، وبطاقةُ الباص كانت خمسة عشر فلساً؟!!

ـ لماذا يَتَعَيَّنُ علَيَّ أن أفرَحَ بذكراكَ، يومَ كُنتُ أُلصِقُ وجهي على

زجاجِ المحلاّت، تَعرِضُ أحلى الملابسِ، وعليَّ أن أكتفي بما تتَقَيَّؤُهُ «بالات اللنكات»!!

ـ أتُريدني أن أفرَحَ لذكرى أبي، يُصابُ بكآبةٍ دوريةٍ، نهايةَ كلِّ شهر، مخافةَ أن يَطرُقَ صاحبُ الدار مُطالِباً بالإيجار، لأننا لا نملكُ الدنانيرَ الأربع...؟؟

ـ يا لكَ من ساديٍّ! كيف لي أن أفرَحَ، عندما كان يتوَجَّبُ عليَّ أن أشتَغِلَ خلالَ العُطلةِ الصيفيّة بحفرِ المجاري بالمِسْحاة، لأُوفِّرَ مصاريفَ دراستي الجامعيِّة، أو حارساً لموادِّ البناء ليلاً، في وقتٍ يحلو فيه السهر.... كُنتُ أُوقِظُ الفَجرَ وأسوقه أمامي، في ساحةِ الأمين..!

أمشي كأني واحدٌ غيري... وأعود إلى غرفةٍ فوقَ السطوح بفندُقِ الأعيان أقلَّ حُزناً..؟!

يا رَديفَ سدرَةِ جَدّي، الآنَ أقولُ لكَ أنَّ من حُسنِ حظّي أنِّي اخترتُ «السرابَ» لأحسبَ خُطايَ، ومن سوءِ حظّي أني اختَرتُ بُستانَ الحرفِ، القريبَ من اللّه، حيثُ يَكتُبُ السيفُ سيرةَ الأشياء..

لكنني سأخرجُ من «أنا»ي إلى سوايَ، وأبحَثُ عن نفسي خارجَ الأشياء، بين سعادةٍ تنوح، وكآبةٍ تُكركِر..! علَّني أتطامَنُ معَ نفسي بعيداً عن باعَةِ الذكرى، ممَّن لا يَمَلّون من تقديمِ اعتذارٍ يوميٍّ رخيصٍ، عن

وعـيهِم وذاكـرتهم... بـل، راحـوا يُعَيِّرونـنـا، كـي نَنْكَـتِمْ، بـأنَّ لـدينا الآن ديمقراطيةً، على عكسِ عهدٍ ولَّى!!

أيَّةُ مُقايَسَةٍ شوهاء، هذي، التي تريدُ لنا، نحـنُ المُغَيَّبين أن نعترفَ بالحاضرِ... وأن نُقرَّ بأننا لم نَحضُر إلاّ لكي نُغَيَّبَ، ونمتَحِنَ قُدرَتَنا على الاعترافِ برفاهيَّةِ التخَلّي بكَرَمٍ عن وُجُودِنا .....!

قِف! رُحماكَ من هذا اللهاث، يا وطن!

أتَدري أن ليسَ أمامكَ غيرُ حقولُ ريحٍ تصفر في الهاوية؟! لماذا يُذعِرُكَ كلامي؟ هو مجرّدُ كلامٍ، ليسَ إلاّ!! أيُضيرُكَ العتابُ، ولا يُضيرُكَ الموت؟!

كم أنتَ نَرجسيٌّ إذاً!!

يا سيدي الوطن! يَقهَرُني المألوف، حتى أنَّ صديقي فولفغانغ اعتادَ الأخبار... في البداية، كانَ وجهه يتَجَعَّدُ ألَماً لتَسابُقِ أرقام الضحايا ..... يقهرُني «المألوف» دونَ أن آلَفَهُ... فهل يُصبحُ بمقدورِ الدمِ العراقيِّ دَحرَجَةُ صخورِ الثأرِ البَدَويِّ والعنصريّ، ومُطارَدَةُ قِطعانِ الضميرِ الهاربة... التي ما عادت تَصلُحُ إلاّ وجبةً للكلابِ السائبة! وأضحى اللا عاديُّ عادياً،... وصارَ الحاضِرُ قادِراً على إنجابِ الماضي كُلَّ حين...؟؟!!

آمَلُ ألاّ تُثيرَكَ الكنايةُ والمجاز، سيدي!

ظِلالٌ مقطوعَةٌ عن شخوصها، ظلالٌ هاربَةٌ في أشباح، تَتَزَيَّا بزيِّ الحُكَّام، وأُخرى تُصدرُ فَتاوى، وغيرُها فَتَاوى مُضادّة، ذئابٌ في قِنِّ الدجاج، وأشباحٌ تشحذُ سيوفَها برقابِ الناس.. أشباحٌ. ظلالُ أشباح. أشباحٌ بلا ظلال. ظلالٌ بلا أشباح... لهمُ «الحمدُ والمجدُ!!» مَن «بَشَّرونا!» بأنَّ أوّلَ صاروخٍ أمريكيٍّ على بغدادَ، سيكونُ «البيان رقم 1»! لسقوطِ الصنم!!

نعم، سقَطَ، غيرَ مأسوفٍ عليه..!! وماذا بعد..؟! فهل هذا هو البديل..؟؟!!

أتَدري، سيدي، أنَّ لبرميلِ النفط سعراً يعلو، ويعلو.... وما من أحدٍ يحكي عن سعرِ برميلِ الدم..!! لا في السوق السوداء، ولا في البيضاء، ناهيكَ عن «الخضراء»!! بَل لا يَنتبِهُ أَحَدٌ إلى أنَّ النفطَ، أحياناً، على سطح الدمِ يطفو! لكن، لا هَمهَمَةَ في الفضاء، من المحيط، الذي **كانَ** هادراً، إلى الخليجِ الذي **كانَ** ثائراً.. كما ادعى نشيدٌ عروبيٌّ مرَّةً...!! فقد أخذوا، من دمنا، كفايةً لما يؤمِّنُ النفطَ، دونَ أن يُعطونا من النفطِ، ما يُؤَمِّنُ دَمَنا ...!!

قِسمَةٌ ضيزى!!

فلا شيءَ يتطَلَّبُ العَجَلَةَ.. مَن ماتَ، ماتْ.. ومَن أُصيبَ سيموتْ.. ومَن لم يمُتْ سيموتُ على مهلٍ، أو فَجأةً.. دونَ أنينٍ مسموعٍ، ودون معرفةِ القاتل....!!

كأنَّ هؤلاء البشرَ ليسوا بَشراً!!

لأنهم، في نظرِ المحتَلِّ والتكفيريِّ والميليشياويِّ والمُرتَزِق، حفنةٌ زائدةٌ من شعبٍ يتكاثَرُ دون مُوجبٍ، إلاّ من فائض شَبَقٍ مَرَضيٍّ...!!

وهم في نظرِ «الأصدقاء!» بطولةٌ، ليسَ لها هَدَفٌ سوى إعادةِ إنتاج بطولتها ... وهُمْ في نظرِ «الأشقاء» الأعداء، مُنحرفونَ، بسببِ ولائهم «الجنوني» لذاتهم ولترابهم ... مجَرّدُ لاعبين صغارٍ في لعبةٍ سياسيةٍ، لا حَقَّ لأصحابها في المشاركة فيها ...

خلالَ ذلك، تَتَواصلُ عمليةُ خلط الثقافيِّ بالسياسيِّ..إذ يُطَبّلونَ لحريةِ الرأي، شريطةَ أن يكونَ رأيَهم، هُم..! وينتقدون الإرهابَ الفكريَّ ليُمارسوهُ ضدَّ الآخرين... يريدونكَ أن تكونَ منهم أو من السلطة ليُصَفّقوا لانحدارهم وسقوطهم فيكَ أنت..!! فلا تَتَوَقّعْ ممَّن نسوا الربعَ بالأمس، إرضاءً لتحالفٍ بائسٍ، أنّهم سيُطالبون بدمِ طفلٍ، أو إمرأةٍ أو شيخٍ، سيسقُطُ في الدقائقِ الأخيرة قبلَ رحيلِ المحتل..!

❖ ❖ ❖

تَسألُني يا سيِّدَ الماء والرمالِ والنخيل «ماذا لو أنَّ نَرجِساً مَسَّ القمرَ، فنَزَلَ من عليائه يُقَبِّلُ صورته على وجه الماء؟!»

سأقولُ لَكَ، لستُ أدري..! حائرٌ أنا، مثل محطّةِ قطار، لا تَدري أتُوَدِّعُ، أم تستقبلُ المسافرين...!... لكنني متأكِّدٌ من أمرٍ واحد، هو أنني سأكتَفي بعلمٍ أبيضَ، عارياً من كُلِّ لونٍ ورمزٍ يُجَعِّده.....!!

. . . . كي لا تَهجوكَ أُمُّك

شاخَ تَعَبي، فكرةٌ تصلبُني إلى جدار،

وأُخرى تقذفُني إلى «أعماقٍ شاهقة»!

بين شهقةٍ وجدار... باتَ الاختيار!

ابقَ في مكانِكَ، طاعناً في الشباب، ولا تترجّل من برواز معلَّقٍ في غرفة أمك..... أنصتْ لمناجاتها، لدعائها، فقد ترى في المنام أنّكَ أَفَقتَ من حُلُمٍ تقُصُّ عليكَ فيه حكايةَ الصيّاد القَنُوع.....

هل كانت تعرفُ أنها من حَكايا «ألف ليلة وليلة»؟!

لا تُقامر بالقفز من موقعِ الحُلُمِ، فقد يكون في وُسعِه أن يتمدّد أميبيا ....

ابقَ في مكانكَ، يا هذا، تنَكّب البُعدَ كي لا تخسرَ الحنين، فالوطنُ هو المُطلَقُ، وليس مَنظَراً طبيعياً للتأمل في زيارةٍ عابرة، كما يفعل السائحون. هُوَ ذاكَ، الذي تطرُدهُ، مِثلَ صبيٍّ شَقِيٍّ، فيتسرّبُ إليكَ من شقوق النسيان.

وطنكَ ليس كبقية الأوطان، «تحرّرَ» مُحتلاً!!

حُرِمَ كل شيء فيه من حُريَّةِ الحركة، حتى التأملات، لأنها غدَت مشغولةً بسؤال العيش والبقاء، وحاجات الإنسان الأكثر أوليةً، الخبز والمأوى.....

❖ ❖ ❖

لا تغادر مكانكَ في البرواز، لأنكَ ستكون مطالباً باستبدال ما هو واقعٌ بصورةٍ ما ينبغي أن يكون، سيُطْلَبُ إليكَ أن تُصفِّقَ للسراب، أن تمتحنَ قُدرَتَكَ على «انتظارِ غودو»، سيتحتّمُ عليكَ إعلاءُ الجحيمِ، واقعاً، إلى مرتبةِ النعيم لغةً.

لا يستحقُّ ما هو قائم إلا الهجاءَ والاشمئزاز..... فبفضل «ديمقراطيتـ»هم تَشظَّت الهوية الوطنية إلى هُويّات مبعثَرَة متنافرة، تخوضُ بدم الناس، مستنفرةً كلَّ ما في ذاكرة الماضي السحيق من همجيَّةٍ وظلاميَّةٍ وتَخَلُّف.... لوأد أي محاولة يمكن أن تصلنا بركبِ الحضارةِ الإنسانية وثقافاتها ... والأنكى، أن هذا الطاعون يتمَترسُ مَسنوداً ببراغماتية محلية مبتذلة، تُشرعِنه تحتَ الأضواء، وتتنصَّلُ منه في الظُلمَة...!

فإذا كانت معايير «الآن!» هي الضاغطةَ خارجَ السياق التاريخيّ، فإن صوابَ فكرةٍ ما، كالعدالة الاجتماعية، وحق الشعوب في التحرر، وحقوق الإنسان لن تصبحَ باليةً لأن أداةَ تطبيقها قد فشلت هنا أو

هنــاك! ولا يحــق لأصــحاب المــشروع «الماضــوي» وبطانتــهم مــن البراغماتيين، بأن يطالبونا بالاعتذارِ عما آمنَّا به، و بتقييمهم على أنهم كانوا مستقبليين بعيدي النظر!! لا لشيءٍ إلاَّ لأنَّ مشروعَهم المتخلِّفَ قد نجحَ آنياًَ، بدعمٍ من المحتلِّ وقوىً ظلاميةٍ فيما وراءَ الحدود ...!!

.. وإذا كـان مـن الطبيعـي أن يخـشى النـاسُ الجبـابرةَ والحـروبَ والكـوارثَ، فإنـه لـيس مألوفـاً ولا طبيعيـاً أن يتحـدّثَ أحـدٌ عـن خطـر الحريَّة والسَّلام – مع النفس ومع الآخر – والثقافةِ والفكر!

بإمكاننـا أن نتبـادلَ النقـدَ ونُحـسِنَ فَـنَّ الاخـتلاف والتمـايز.... يمكننا أن نختلف في موضوع الإدارة والوزارة والحجاب والقافيـة....لكنْ من غير المسموح به عدم التمييـز بـين الاسـتقلال والاحـتلال. فتلكَ هـي نقطـةُ الالتقـاء والافـتراق في مـا يُـسمَّى بالمـشروعيَّة الوطنيَّـة إيَّاهـا . لكـنْ يُمكِنُنا أن نتنافسَ في سـلامةِ العلاقـة بـين الإطـار والمحتوى، بـين الـشكل والمعنى، بين الأداةِ والفكرة، ضمن إدراكٍ وطنيٍّ عام.

❖ ❖ ❖

لا يَستَذلِّنَّكَ الحـنين، يـا صـاحبَ الـبرواز، فتقبَـلَ بـرؤوسٍ صـغيرةٍ غزاهـا اليـأس، حتـى صـارت لا تتـسعُ لِحُلـم، فراحـت تـزدري الحريَّـةَ والتضحيةَ وتُحوِّلُهما إلى مادَّةٍ للتهكُّم والسخرية كلَّ وقت، بل لا تكلُّ عـن التبشير بعبثيَّة رفض الاحتلال باعتباره قدراً لا مردَّ له!!

اسمع، يا هذا في بروازك، سيأتي وعيٌ جماعيٌ أقوى من «الفسيفساء»، وسيرحَلُ المحتلُ قبلَ الفجر، كما فعلها في سايغون، دون أن يجد الوقتَ الكافي لارتداء «ملابسه الفولاذية»!

عندها سنفرح، وسنُشنِّفُ آذاننا لزغاريدِ النسوة.....، وسيتسلّى الصغارُ برمي الحجارةِ على عرباتِ المحتل، وهي ترحل.....

ساعَتَها لن يكون بيننا مَن داهنَ المحتل! أولئكَ، الذين صحَّ عليهم القول: «يأكلون مع الذئب ويبكون مع الراعي!» فنحن نعرفهم فردا فرداً، «شاعراً شاعراً، كاتباً كاتباً» وكل الرَّدّاحين، القُدامى منهم والجُدُد!!

جنودُ الاحتلال، هم الآخرون سيكونون فَرِحين....، لِمَ لا؟ فقد يفرح المرء بالهزيمة عندما تكون الطريقَ الوحيدَ للبقاء، واللحاقِ بما بقي له من حياة!

أما مَن سمّى الاحتلال «نصراً للديمقراطية»! سيسمّون هزيمة المحتل انتصاراً أيضاً، لكنهم سيحمّلون طرفاً آخر كل المسؤولية، حتى لا يجرحوا النرجس!!

❖ ❖ ❖

ستقولُ سلاماً على أوقاتٍ يَجترُها الحنينُ مُسَربَلاً.....

ثلاثونَ مَرّت منذ زَوّدتُكَ «مدينة السلام» بعُدّة السفرِ الطويل،

على طُرقٍ لم يكن واضحاً منها إلا أوّلُها، وصرَّةٍ من أحلامٍ تتناهبها المغامرةُ وسِجالُ العلاقةِ بين الخطوةِ والطريق. فالطريقُ المُعَبّدَةُ ليست طريق الحالمين!

ابقَ في بروازك، وستجدُ نفسَكَ ما ذهبتَ إلا مَجَازاً، ولم ترجع إلا مَجَازاً!

..... عندها لن تَهجوَكَ أُمُّك!

سلاماً أيها الأَرَقُ

سلاماً أيها الأَرَقُ ..

سلاماً أيها الوسنُ..

الغفوُ يُقرِئُكُما السلامَ برايةٍ بيضاء،

ـ «لا سبيلَ إلى سلمٍ بيننا، ومن أيِّ نوعٍ كان! فقد خُلِقنا أعداءً وكفى!!»

تمنَّيتُ ذاتَ وهمٍ أن أصلَ معهما، ولو إلى هدنةٍ..

أقبَلُ حتى بمؤقتة! كي أستريحَ وأصلَ إلى «أحلامي»[1]

الزمن يجرجرُ عربته المُتهالكة بخيولٍ شمطاء،

غُربتي تَطيشُ بي،

معوَلٌ أخرَق يُصادرُ فرحتي، فلا يُبقي لي سوى الوحشة،

في الشمس أختضُ برداً،

أُشهِرُ التياعي على رماحِ العُربِ،

---

[1] كلكامش حملَ صاحبَه أنكيدو إلى جبل الآلهة منادياً: أيتها الآلهة، امنحي صديقي حُلماً، يُشفَ من علَّته. ي.ع

أقضمُ، تحتَ اللحافِ، أظافرَ وحشتي،
وأستُرُ عُريَ همومي بنظَّارَةٍ داكنة، كي لاتفضَحَني ثرثرَةُ عيوني..
أشتري النسيانَ،
أشتري ممحاةً لذاكرتي، كي أهجَعَ،
وأستعيدَ عفويةً أهملتُها طويلاً، فَنَسَتْني..

❖ ❖ ❖

ماذا تفعلُ بليالي الشتاء الطويلة، إنْ جَفَاكَ الغفوُ، وتربَّعَ السُهادُ ثقيلاً على صدرِكَ؟

تُقرِّرُ أولاً أن تتخلّصَ من الكلمات والشِّعاراتِ الفارغة، الكاذبة، التي تَرَسَّبَتْ في أُذنكَ، طوالَ اليوم، فتتنَبهُ أنْ ليس لديكَ مقبرةٌ سرية للمقيلِ من الكلام الفارغ..

تَقدحُ بخاطركَ فكرةٌ تَقودكَ للتخلُص من تَيْنِكَ الكلمات.. تجمعُها بكيسٍ، كي تَمزجَها مع طُعمِ سمك الزينة، وتُلقي بها في الأكواريوم.. تزهو بنشوةٍ طريَّةٍ عندما تلفظها الأسماكُ، فُقاعاتٍ، تتفجَّرُ على سطحِ الماء..

تروحُ بعدَها تُقَلِّبُ أوراقكَ، علَّكَ تصطادُ فكرةً أو مُفردةً تُطاولُ عنانَ الفكرة..

تظنُّ أنكَ عثرتَ على شيءٍ يصلُح.. فيرتدُّ إليكَ القلم مؤنباً:

«لماذا تختارُ الحكمةَ، ما دامت البهجةُ قد انسفحتْ، وسالتْ من قدميكَ؟!

ابعدْ عن نبع الحكمة، يا أنتَ، ستقتُلُكَ... لا أحَدَ ـ يشتريها ـ!!

اقبض على حكمةِ سيدوري، صاحبةِ الحانةِ عندَ فمِ الأنهار، حيث من الطوفان، أسلافنا نجوا..، كانت تَدلُقُ ذاكرتها كلَّ صباح وتنسى ما مرَّ قبلاً.. فتنتظرُ ما سيأتي..

حكمةٌ تُبقي على عُذريةِ الانبهار، وتظَلُّ مُشرَعَةً على بُغتَةِ العفويَّةِ..!»

.....

تَرمي القُصاصةَ، وتعودُ إلى أوراقِكَ، فتقرأُ: «الصدقُ في هذا الزمان، هو أنْ تَخرَسْ!

فلكي تكونَ صادقاً، يجب أنْ تكونَ حرّاً.. ولكي تكونَ حراً، عليكَ أنْ تعيش.. ولكي تعيشَ عليكَ أنْ تخرس..! فلا يبقى أمامك غيرُ أنْ تأكلَ وتنام.. تسهرَ وتسكرَ، فتمرَضَ وتموت.. فأنتَ حرّ!!»

لذلكَ سأكفُرُ بجدوى القول، وستستريحُ أنتَ منّي..!

فماذا جنى شابلن من سخريته؟ حتى بعدَ وفاته، نبشوا قبره وسرقوا رفاته!

وماذا جنى غويا وفان كوخ من لوحاتهما؟

بايرون ورامبو من قصائدِهما

وميرابو من خُطبه، غيرَ الفقر والجنونِ والضياع!!»

يخزرُكَ صاحبُكَ مستهجناً حزنكَ ويتهمكَ بالسوداويَّة، فتُحيله إلى بيكاسو وغيرنيكاه يوم تغلّبَ على خوفه[2] وتقول له «الخوفُ، يا صاحبي، هو مُلكيَّتُنَا الجماعيَّة، لأننا بدونه مثلَ سجينٍ عارٍ منَ الأحلام..! فما دُمنا، من الخوفِ والذُلِّ، لا نجرؤ على التطلُّعِ للقمر، فكيفَ نهزمُ مَنْ غزا القمر!!»[3]

ينزَلِقُ صاحبُكَ من بين أصابعكَ، مُردداً: «تستلُني من رَقْدَتي لتُسطِّرَ شجوناً، لا شأنَ لي بها، أريدُ أنْ أنتشي بفرح، ولو لمرةٍ واحدةٍ معكَ!»

«أما قُلتُ لكَ، من قبلُ، أشتري النسيانَ أو ممحاةً للذاكرة؟» تردُّ عليه.

«كيف أفرح ووطني موغلٌ بالدَّم والدخان والخَبَل، حيثُ يَغُصُّ أثيره مُختنقاً بأبخرةِ التعاويذ وفتاوى التَّكفير.. بشعاراتٍ، كَذبٍ ونفاقٍ وفيرٍ... وعند ضفافِ الشفاه يتكسَّرُ الكلام غير المنطوق.. تُرى مَن يُرتِّقُ مزَقَ أسئلةٍ ظلَّتْ منشورةً على حبالِ الصوت، مترددةً بينَ خَرَسِ الخوفِ وإلحاحِ أهواء القلبِ والشوقِ لفرحٍ، لم نعد نعرِفُ له طعماً، رائحةً أو إيقاعاً...؟!

---

[2] أيامَ الاحتلال النازيِّ لفرنسا كانت لديهم توصيةٌ بعدم مضايقة بيكاسو، بل محاولة التقرُّب منه.. زاره في مرسمه أحد ضباط الأس. أس، ولما رأى لوحة الغيرنيكا، قال له لماذا ترسُمُ بهذه البشاعة؟ فردَّ عليه بيكاسو: «لستُ أنا المسؤولَ عن هذه البشاعة، أنا رسمتُ ما قمتُم به أنتم!» ي. ع

[3] «لم يعرفوا لون السما من فرطِ ما انحنتِ الرقابُ» الجواهري الكبير.

أفتدي مَنْ يأتيني بكمشةٍ من غُبار طلعٍ، من نخيلِ بلادي، ونسمةٍ من الرازقيِّ والجوريِّ إيَّاه، من دونِ غبارِ مُدُنها الضريرةِ، الهالكةِ في قاع الجنون...؟! أحلم بشيءٍ من فِضَّة قمرٍ، أستحمُّ بها، حتى تهِلَّ عليَّ نصوصُ الحكايا في سطوحِ الصيف...

هيَ بلادي، رغم أنف الجغرافيا وكل المستبِدِّين، منذُ طفولة التأريخ وحتى يوم يُبعثون)!

سالم جبران، يصف بلاده ـ فلسطين ـ:

[كما تُحبُّ الأمُّ

طفلها المُشَوَّهَ..

أُحبُّها

حبيبتي، بلادي]»

.....

يصمُتُ صاحبكَ، مُتَّهماً.. فتقول له:

«نعم، مُنكسرٌ أنا، لكني لستُ مُنهزِماً، أو يائساً!

مَنْ يُجيبكَ كيف تنتهي مما لم تبدأه بَعدُ؟!

نُطقٌ غامِضٌ، حَمّالُ أوجه، يزيغ كالزئبق، أفواهٌ تتشدَّقُ ببلادَتها، خاسرونَ مُتطاولونَ، وأصواتٌ نشاز تتقطَّرُ لؤماً - مسلولاً -[4] كي ـ

---

[4] قبل اكتشاف البنسلين في علاج مرض السل، كان المريض يُعزَلُ تفادياً لانتقال العدوى إلى الآخرين، ونتيجةً لذلك يُصابُ بالكآبة من العزلة وتتولَّدُ لديه حالة يجنحُ فيها للانتقام من «الآخر» الذي عزله.. وفي أقرب فرصة تُتاحُ

تعيش!. وتدفعَ عن نفسها فزعاً يَخُضُها ... منظرٌ مُهترىءٌ لمسوخٍ تحتلُ المشهدَ، استوطنَت الخنوعَ.. وراحت تحتكرُ دورَ الضَّحيَّة، حتى لا يقترِبَ أحدٌ وينازعَهم على ما تربّعوا عليه، فيخطفَ ـ مَكرُمةً! أو يحظى بـ ـ درعٍ!

.. مدارٌ كابوسيٌّ، ينصبون لكَ فيه فخاخاً، كي تَسقُطَ.. حينها سيهلّلونَ، ليسَ لكَ، إنما يُهلِّلون لأنفسهم بسقوطكَ، حتى لا يبقى واحدهم ـ الساقطَ الأوحد ـ، كي لا تبقى يدٌ ولا جبهةٌ بيضاء..!»

تَفرِكُ جبينكَ، وتترنَّحُ بين صمتٍ وصمتٍ، لتَستَلَّ من قعرِ الصمتِ جمرَ المفردة... فإذا بـ«صاحبكَ» يتدحرجُ ويسقطُ من الطاولة، تُحسُ أنه لم يعُدْ يقوى على الاصطبار.. ترفعُه برفقٍ وتعيدُه إلى الطَّاولة، كي تُواصِلا من جديد، مُستَغلَّين هدأةَ الليلِ ونكايةً بالأرَق..! فيروحُ يخطُ إسمَ «خليل حاوي»! فتقول له:

«لستَ بحاجةٍ للغمز ، يا صاحبي، فنحنَ نَلقُطُها وهيَ طايرة، قبلَ أنْ تَحُط!! أعرِفُ أنَّ خليل حاوي لم يجدْ غيرَ بندقيةِ صيدٍ، اصطادَ بها نفسه! احتجاجاً على احتلالِ إسرائيلَ للبنان..

أما عندنا فـ....!

أخرجْ إصبعَكَ من أُذُنكَ وإستمعْ لما أقول. في نهايةِ فيلم حريق الميسيسبي للمخرج الإنكليزي ألان باركر يتساءلُ أحدَ المُحققين، لماذا

له، يبصقُ بصحن مَنْ يجلسُ، يواكله أو يؤانسه، وفي ذلكَ يشعر أنه تساوى مع «الآخر»!

شَـنَقَ رئـيسُ البلديّـة نفـسه، في حـين أنـه لم يكـن عـضواً في عـصبةِ كـو كلوكس كلان الفاشيَّة، يجيبه زميله:

ـ لقد فعَلَ ذلك تحت وطأةِ وَخزِ الضمير، لأنـه كانَ شـاهداً على كـلِّ مـا حـدثَ، لكنـه تـصَرَّفَ وكـأنَّ شـيئاً لم يكُـنْ! إذاً هـو مُـذنبٌ مثـل الآخرين..!!

يـا صـاحبي لا نُطالـبُ بخليـل حـاوي جديـد! لكننـا نتـساءل، فقط، لماذا لمْ ينوجدْ عندنا، حتى واحدٌ، مثلَ القس الألماني مارتين نيمولار، الذي حاكمَ نفسه، عن دوره أيام الحكم النازي، بقصيدةٍ، قالَ فيها:

عندما جاؤوا وأخذوا الشيوعيينَ،
لمْ أَقُلْ شيئاً، لأني لستُ شيوعياً.
بعدها أخذوا الاشتراكيين الديمقراطيينَ،
ولمّا لمْ أكنْ واحداً منهم،
ما قُلتُ شيئاً.
ثمَّ جاؤوا وأخذوا جاريَ النقابيّ،
وبما أنني لمْ أكُنْ نقابيّاً، فما قُلتُ شيئاً.
وعندما أخذُوا الشمّاسَ الكاثوليكيّ،
كذلكَ، لم أقُلْ شيئاً، لأنني بروتستانتيّ،
.....
وحين جاؤوا وأخذوني،

لمْ يكنْ هناكَ أحدٌ يقولُ شيئاً من أجلي!»

.....

❖ ❖ ❖

عندها تشعُرُ بالإعياء، فيتسلَّلُ إليكَ الغفوُ ناعماً، كدبيبِ النمل، يُرسِلُ غزلانَ النُعاسِ على أطرافِ الجفون، كي لا تُنَبِّهَ كلابَ السُهاد... فتروحُ تُسدِلُ كل الستائرِ فيكَ، لتَغمِزَ للغفو، فيتقدّمَ وئيداً، يُفرِدُ جناحَه الخارق فيطيرُ بكَ إلى قاعِ الأعالي...

من دون عنوان . . .

مّا فاتَني ضحىً، أُفَتّشُ عنه في عباءةِ الظُلمةِ،
أُداوي وَرَمَ الذّكرى بروضِ الأبجديَّةِ وحدائقِ المقيلِ..
بي شوقٌ أن أتوهَ في شوارِعَ وأزِقَّةٍ نَستْ خَطْوِيْ
أتَسَمَّعُ أصداءَ خُطايَ تَرِنُ في وحشَةِ طُرُقاتٍ نامَتِ البيوتُ
فيها،
فَأُحِسُ بشيءٍ يرتجِفُ بينَ ضُلوعي،
أتكونُ فكرةٌ تطرُقُ بابَ قَلبي؟
أو قَدْ تكونُ ارتَدَّتْ إلَيَّ مثلُ صدىً يَرجِعُ للصوتِ؟
لا..! لا..! لَنْ أبوحَ بها لِعَسَسِ الزمانِ!!
سأكتُمُها، سأَدفِنُها في صدري!
سأقولُ هيَ صخرةٌ تستصرخُ قدمَيَّ،
سَئِمَت الانسحاقَ تحتَ أقدامِ المارّةِ،
بها لَهفَةٌ للعودةِ إلى جبَلٍ، أو وادٍ،
أو ربما لمجرى ماءٍ..،

... قد تكونُ مَلَّتْ الأرصِفَةَ وعَتَباتِ القصورِ والخمّارات...
كدجلَةَ يَصيحُ بمجراه: «عُدْ بي لنبعٍ صغيرٍ، ينجَمِدُ،
حتى لا يشربني القوّادونَ والسماسِرَةُ والأفّاقونَ والجُهَلاءُ
والحمقى ورُعاةُ الخُرافةِ القومانيون!!»

ظلٌ لَجوج

في صباحٍ صافٍ مثلَ عين الديِّك، ودّعتُ الفِراشَ بمزاجٍ صَبوح، قرّرتُ أن أُذيبَ الفرحَةَ في فنجانِ القهوة، وأن أبدأ النهارَ مُتراخياً، تاركاً قميصي مفتوحاً لرياحِ الصُدفة بما حَمَلَت.....

لا هو استأذَنَني، ولا أنا دعوتُه،.... هكذا قرَّرَ مُرافَقَتي، ظهيرةً، في الطريق إلى البحيرة القريبة... كنتُ أنشُدُ خلوةً، أخطِفُ فيها من الغفلة ما يُعينُني على الكتابة....

على المِصطَبَة، إلى جانبي استراحَ ظلِّي، واقيةٌ من الشمس تَعتَليه... وبنظرةٍ جانبيةٍ، راحَ يتلصّصُ على ما كنتُ أشرعُ بكتابته... نهَرتُه، لأنِّي أكره اللُصوصيَّةَ واللصوص...! فما انتهَرْ!... ثانيةً،... ثالثةً...،.. فما نَفَعَتْ معه...

أخيراً، قرّرتُ التعايشَ معه..!!... لكنني، قَبْلَها، قَرَصتُهُ من أُذنه، علّي أحمِلُهُ على الرحيل، فأنفرِدَ بنفسي....

هيهات!

.....

نَهَض العراءُ... لَملَمَ أشياءَهُ على عَجَلٍ، معهُ أخَذَ الغُبارَ وارتَحَل، إلا ظِلّي!

صِحتُ به... وَيحَك!! ماذا تُريدُ منّي؟! اتركني وشأني....

بمنتهى الهدوء هَمَسَ لي: «أُريدُ لكَ أن تَسمَعَ المرئيَّ، وترى المسموعَ!»

.....

قُلتُ له، مُخاتلاً: «أُريدُ أن أكتُبَ عن صغيرتي».

قالَ... هات!

قُلتُ، اسمَع، إذاً.. «أمس، عادَت ندى من الرَّوضة على جناحٍ من الفرحَة غيرِ مسبوقٍ. طَوّقتني بيدَيها الصغيرتين... بابا، تعلّمتُ العدَّ.. ألديكَ حصىً، أو حَجَراً أُريكَ ما تعلَّمتُه اليوم...؟!»

قُلتُ.. لا

قالت مُحتجّةً: «ولكنني أحتاجُ شيئاً أعُدُّه!»

قُلتُ: «هاك أذاً، ولكن لا تَفزَعي، فلديَّ من النُدوبِ ما يَفيضُ على ما تَعلّمته من العدِّ اليوم..!»

لم تَفهَمْ ما أرَدتُه،... وكيفَ لها؟!!

عرَّيتُ صدري وظهري، وقُلتُ: «هاتِ يا ذُبالةَ العمرِ ما تعَلَّمته!»

«واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خم..سة، س...بعة...تسعة، ستة؟ بابا! هذا كثير! فرانكا، لم تَصِل معنا إلى هذا الحد..!!.. كم هو عددُها؟؟»

قلتُ.. «خمسةٌ وأربعون....!!»

بأصابعها الصغيرة، البضّة، أشارت لي متسائلةً عن الأربعينَ وخَمساً...

حاولتُ أن أُقَرِّبَ لها الصورة: «إحدى عشَرَةَ مرة بقدرِ عيد ميلادكِ الأخير وأزيَد!».....

«قف! هذا يكفي! لا تَستعبِطني أكثر! ولا تكذب علَيّ...!» قالَ الظل.

.....

.....

مُتَلبِّساً، أمسَكَ بي...!!!

«أنا كاذبٌ، يا سيدي، كاذب! هل يكفيكَ هذا؟!

هذه القصةُ، اختَلَقتُها، لأُخفيَ أُخرى،.. فيها ضَبَطَتني بُنَيَّتي جاثياً، أتلَصَّصُ على نفسي.... لم تُكَلّمني، تَركَتني مصعوقاً، كَمَن ضُبِطَ فوقَ امرأةٍ في فُندُقٍ مشبوه. «خَيَّبتَ أمَلي فيكَ!» عبارةُ وحيدة، أسقَطَتْها في الفراغ، وانسحَبَت إلى غرفتها، دون إيضاح!!»

«اصدُقِ القولَ معَ نفسِك أولاً! فما جِئتَ إلى هنا من أجلِ هذا..!»

قُلتُ: «صدَقت..!

جئتُ أُحاوِرُ طيفاً، وطناً... يُذكّرُني برائحةِ أُمي وثيابها، حيثُ يتدفَّأُ القمرُ في حضنها..... وطناً جحوداً يُنكرُ حتى خوفَها علَي....!»

«وعمَّ تبحث؟!» سألني مستغرباً.

ـ «أبحثُ عن الاختلافِ، يا هذا، الاختلافُ الذي لا يكِفُ عن الشك في اليقين، لأنَّ الإجماعَ من صِفاتِ القطيع!»

«ماذا تريدُ إذاً...؟؟»

ـ «لا أُريدُ منه شهادة حُسنِ سلوك! لأني أعرفُهُ جَحوداً... فهذا وطنٌ أحرَقَ كلَّ مراكبه ليبني منها عروشاً للأُمِّيين، والقَتَلَة، واللصوص، والنهّازين، ويحوِّلَ أشرعتَها عمائمَ للتنابلِ والأفّاقين، وجلاّبيات أفغانية للأعاربَة، والمعتوهين من الكبت الجنسي...

إيـــــه...، يا وطناً يتسلّلُ إليَّ من الأبوابِ الخَلفيّة!!.. لا نفعَ في تَسَلُّلِكَ. فقد سَرَقتَ مني كل شيء، إلاّ حفنةً من رؤوسِ أقلامٍ، ورؤوس أحلام..... لم يَعُد هناكَ ما يستحقُ التسَلُّل مثل لص....

وهبتُكَ كل شيء، لكنكَ أكذَبُ الأوطان، وأنا أحمَقُ عُشّاقك....

أجبني، يا وطناً يحترفُ الرِّدّةَ مَن يومِ عاد، من أيِّ تَكيَّةٍ تَعَلَّمتَ الرقصَ في الجحيم؟

مَن علَّمَكَ لُعبةَ الغولف، بجراحاتنا وشظايا الذاكرة...؟!»

«إذا كان الوضعُ مثلما تقول، فهل يعني أنكَ تَحنُّ إلى ما فات؟؟»

ـ «كنتُ أُؤمن بأن الغدَ أجمَل. لكن التأريخَ، وإن فاجأني بخيباتٍ جديدة، لن يُغريَني بمدحِ الأمس... لأني، دونَ خلاصٍ، أدمَنتُ النظرَ إلى أبعد من أرنبَةِ الأنف..! ولن أقَعَ فريسة لثنائيةٍ موهومة... إما هذا الطاعون... وإما ذاكَ الكابوس اللعنة...!!»

«لكنَّ الناسَ أرادت هذا!»

ـ «هذا كَذِبٌ صريح! كلُّ الناس طيبون وشرفاء، إذا أشفيتهم من الفاقة (ماديةً كانت أم روحيَّةً) إلا تلكَ الزهور الحمراء، المخصوفة في صدورِ العساكرِ بين وسامٍ ونجمة....

... كلُّ اليمامات طاهرة، حتى لو بالت على شُرُفاتنا، إلاّ تلكَ، التي يُدرّبها الجبابرةُ والطُغاةُ على الرفرفة في أعياد ميلادهم...!»

«أنتَ تهذي، وفي أحسنِ الأحوال تحلُم..» قال الظلُّ ساخراً

ـ قُلتُ: «هذا زمنٌ وغدٌ، إذا لم تُحافظ فيه على الحلم، ستجِدُ نفسَكَ في خانةِ المزابل والقاذورات...

زمنٌ حقيرٌ تَقَزَّمَت فيه حتى قامات الأعداء، فلا تَجدُ عدواً كبيراً تكبرُ به...

فكيفَ تُريدُ منازلةَ ضآلةٍ يترَفّعُ سيفُكَ عنها ...؟!»

«يبدو أن لا نفعَ مع ألمكَ وحُزنك...!» ثم أشاحَ بوجهه عنّي.

ـ «ليس للألم وطنٌ، يا سيِّدي! وللحزن أكثرُ من طقس! لكنني لستُ أدري ماذا يفعلُ الأنبياءُ والأولياء حينما يحزنون؟ ماذا يفعلون زمن الردّة؟ أتُراهم يبكُون أم يُصلُّون؟ أما أنا ... فقد قّررتُ الرقصَ بركُبَتَيَّ المعطوبتين... فالرقصُ عبادةٌ أيضاً ...!»

«عِش حياتكَ أنت! وإن شئتَ جادِلهم!!»

– «هذا هو عينُ ما يريدون! لا حياةَ طبيعيَّةً مع الاحتلال، وتحت الاحتلال!! نحن عراة الصدور، وهم في خضرائهمْ مدجَّجُون بالواقيات... الناس تجوعُ حدَّ العهر، وهم مُتخَمون عهراً... يُريدون لنا

أن نُصَفِّقَ للبؤس، ونُشهِرَ البهجَةَ لذُلِّنا، على طريقِ الاستقلال واستعادة السيادة..!! فكيفَ يستقيمُ الجدَل..؟!»

قالَ: «من كلامكَ، أشمّ رائحةَ زمنٍ مضى...!»

- «قد أُجازفُ بالظن أن المقاومةَ، ليست تَرَفاً، بل ضرورِيَّةً وممكنة! في زمنٍ شديد الغموض، يتسَيَّدُ فيه انقلابُ المفاهيم والمعاني، لكنه لا يُعَطِّلُ النشاط الذهني - الثقافي، بل يشحَذُه ويدفعه حدَّ رفضِ التطبيع مع 'الواقع' المُصنَّع 'احتلالياً'! فالنَّشاطُ الثَّقافيُّ، بما هو معرفة، عاملٌ أساسيٌ في صياغة الوعي... من هنا تنبُعُ أهميةُ علاقته بالواقع، ليس انسجاماً ولا تكريساً، بل إسهاماً في نشرِ الوعي الجمْعيّ بضرورةِ تغييرِ هذا الواقع، إلى ما هو أرقى إنسانيَّاً، وليس كما حصل في المرَّةِ السابقة! فالجمال حريَّة... والحرية جمال.. وبهذا تكونُ الثقافة المُدافعة عن الحياةِ والحرية، شكلاً من أشكال المقاومة النوعية....»

«ليسَ لديَّ وقت كثير! قُل فكرتَكَ الأخيرة، فقد تأخّرتُ..!» قالها الظل مثل طفلٍ انحبس بولُه... نظرتُ ناحيتَه، فوجدتُه قد استطال وابتعد عنّي، مُتشوِّهاً مثل بقعة زيتٍ على صفحة الماء..

- قلتُ: «سأُعلِّقُ كلماتي وصوتي على سعف النخيل، وفي ساحات الذكرى..، سأتسلّق قوسَ قَزَح وأكتُبُ نشيداً وطنياً، لغيرِ هذا العاق.....!!»

عندما انتهيتُ، وجدته قد توارى، فيما كانت الشمس تُلملِمُ آخرَ ضفائرها من البحيرة قبلَ أن «تُحتَضَر!»

حَزَمتُ أوراقي وعُدتُ إلى البيت. فتَحتُ الثَّلاجةَ وتناولتُ زجاجة بيرة: «كاسك يا وطن!» ها أنا بفضلك نصفُ مواطنٍ هنا، لكنّ كاملُ الحرمان!!

كانت صغيرتي مستغرقةً في النوم، والوطن يشخَرُ خارجَ اللحاف، من صُرّته تشرَبُ خيولُ الغزاة وتصهَل....!!!

قَبَّلتُ صغيرتي، التي ستكبُرُ بعدي، وذرَفتُ دمعةً على وطنٍ لن أراه، لكنَّني أحملُهُ معي وأُؤَثِّثُ به غربتي...

.....

رررررررن.....

أفَقتُ، ولقيتُ برلينَ تغطُّ في ظلمةِ فجرٍ شتائيٍّ كئيب.

قناديل بشت آشار

نقرٌ على ذاكرةٍ مثقوبة

قُم من رَقدَتكَ، أيها المُدَّثِّرُ بلحافِ «الانضباط»
وأحلُلْ صُرَّةً من خَيباتٍ دَفَنتَها في أعماقِ نسيانٍ راكدة.
قُمْ، أنثرها في مهبِّ الذاكرة، فـ «الناسُ» مشغولةٌ بموائدِ اللئام.
أفِقْ! يُرادُ للريحِ أن تكنُسَ رمادَ الذكرى.
ما كانت ذُؤابات النار على هام الجبل، شاراتِ كاوَه الحدَّاد، ولا كمائن للقَبجَ،
يومَها كانت أحلامُنا أرحب، وأُمنياتنا أزهى،
غولٌ حطَّ في الوادي،
تقيأً، في وحشة الثلج، أرذلَ الخلق،
فبدأ المعراجَ زهرُ اللوزِ والياسمين.

❖ ❖ ❖

قُمْ اِغسِل كآبتَكَ يا هذا، فما حانَ وقتُ تأبين الأحلام،

قُمْ، رجُلَ الخساراتِ الاختيارية، اغتَسِل بالطيبِ،
تَوَضَّأْ بنورِ الوفاء،
ولا تكُن راعياً للضَّجَرِ المنضبطِ، في شراشفِ الالتزام!!
اجلِسْ إلى مائدة خساراتِكَ،
وعِشْ زوربا، لحظةَ التعاسةِ الخالصة....

❖ ❖ ❖

قُمْ، لا تَطهُ أحزانكَ في قدورِ الآخرين،
خُطَّ ما يمليه ضميرُكَ، لا تعبأ لمن يتبرَّعُ بتلقينكَ دروسَ «الضبط»!
«لأن الحزب وحده مَن يمتلكُ حقَّ إسكاتِكَ،..قَتْلَكَ،... أو حُبَّكَ بطريقته الخاصة...!»
قُمْ، لا تُحابِ إلا صوتَكَ الداخليّ، لأنّكَ لن تحيا مع سواه.
احرِقِ النسيانَ بثقابِ الصحو،
فرصاصُ الغدرِ، وكواتِمُ «التحالفات»
قَطَفَت زهوَ الربيع....

❖ ❖ ❖

قُمْ، اترُك السيركَ، فلا مكانَ لكَ بين مهرجاناتِ البهلوان،
وألعابِ القفز على الرقابِ،
هذا سيركٌ تضحَكُ فيه حفنةٌ على بقيَّةِ الناس،
وتَرضى أن تُرَوَّضَ أُمَّةٌ على الغباءِ والنفاق...
بالتساوي، تُوَزَّعُ الشعاراتُ بين الناس.
قُمْ، يا هذا، فلن يُكفكِفَ دمعَ السماءِ أحد ....
قُم فما زالَ في باطنِ العراقِ حجارةٌ لم يقذفها الزلزالُ بعد .
أفِقْ، إنهم يتحايلون على الذاكرة،
يرمُونَ لها عظْمَةً تتلهّى بها ،
قُمْ، فلن يمنَعَ طيفَ الصَّحبِ عنكَ أحَد ،
لن يُلغيَ ذاكرةَ الأهلِ أحَد ،
قُمْ، فما عادَ الوقتُ جماعياً، بالجملةِ يُنفَق.... وبالجملةِ يُعاش...
ما عادَ وقتاً لـ«القضايا الكبرى» و«التَّضحياتِ الكبرى»!
ما عادَ فيه هامشٌ للتَّفاصيل.
قُمْ، لا تُصدِّق أن في الاستشهادِ مراتب!!

له البهاءُ كله

يومَ ابتلعت السعلاةُ رغيفَ الشمسِ، أصابته «ذبحة»....

هرعنا إلى النهر، سيَّرنا قوافلَ شموع،

رقصةَ أشباحٍ على جبين الماء،

أودعنا زنابيلَ شعيرٍ لحصانِ الخِضرِ في باطنِ النهر.

أحرقنا لهُ الطِّيبَ والبخورَ،

غَنّينا له أجملَ التراتيل،

عَلّهُ يسترجعُ عافيةً وَلّتْ، ونَظَارَةً رَحَلَتْ.

.....

.....

أَسَفَاً، لا التعاويذُ شَفَتْ، ولا التسابيحُ نَفَعَتْ.

تركناهُ، مُعلِّلين النَفسَ «أنّ للوطنِ رباً يحميه،

وأهلُ غيرةٍ لا يبايعون!»

.....

.....

وا حسرتاه..!
بايَعَ الأهلُ «المغولَ»، وما فارقَت الآلهة ساديّتَها،
.....
تَشَظَّى، مُنتحراً بعقوقِ الناس،
قَضَى، لأن الأوطانَ لا تُهاجر....

❖ ❖ ❖

لكنَّنا لم نُمالئْ السَيَّافَ والسمسارَ،
نحنُ قومٌ لا نَشُدُّ جراحَنا،
نترُكُها فاغرةً،
كُلما التأمَتْ، من الصراخ تَعبى،
نَفُضّها، نَرُشّها بالملح، حتى لا تستكين،
ولا ننسى!
.....
.....
سندفنُهُ في موقعٍ، بين الشُغافِ و«موطنِ الأسرار»،
نُهرِّبُهُ خِلسةً، مُخدَّراً،
نَجدلُهُ بذاكرتنا،
نُطرِّزُهُ شرائطَ لضفائرِ الصبايا،

ونُورثُ لُوثةَ عِشقهِ للأطفالِ،
وللأحفادِ،
عَساهم يُصيِّرُونَهُ يوماً أبهى،
..... ويلعنوننا؟؟!!
.....
لا بأس!!
.....
.....
«كرامةً، يا مُحسنين!
عَطايا قليلةٌ، تدفع بلايا كثيرةً!»
مَن يرثي عنِّي وطني؟!
فقد نَزَفتُ كلَّ حروفـي!

. . . رأيتُ البَلّور

(صغيرتي إستوقفَتْ أُمُّها في الطريق،
جَسَّتِ الهواءَ بأنفها الصغير، وصاحَتْ..:
- ماما! أَشُمُّ رائحةَ بابا.. سيعود الآن..
أسرعي بنا إلى البيت..! أُمُّها كانت قد قالت لها... بابا في سفرةِ عَمَل، كي لا تَجفَلَ الصغيرة من مُفرَدَةِ مريض، لأنَّ الأخيرةَ ارتَبَطَتْ لديها برُعافٍ أصابَ خالها الصغير بمراكش، إذ واصَلَ الصيامَ رُغمَ مَرَضِه!، فراحت ندى تَقرِنُ مُفرَدَةَ مريض بالرُعاف..)

مَنْ عَلَّمَكِ السِحرَ، يا ندى، بدونِ بخورٍ وخِرَزٍ، أو حَصىً ورمل..؟
مَوكِبُ الغَجَرِ ما مَرَّ من هنا، فالبلادُ على رَحيل!
أَتُراهم رَمَوا لكِ بسِحرِهم، مَزموماً بصُرَّةٍ من قماشٍ، يَتَخَفَّفون بها من الجمارِك؟!!

❖ ❖ ❖

متى أعـودُ؟

سـتنتظرينَ بعـضَ وقـتٍ، يـا نـدى، فَـضُمّي إليـكِ الأرنَـبَ والـدُبَّ، ونـامي...، سـيحملانكِ علـى جنـاحٍ مـن اللهفَـةِ، إلى قـصورِ الأمـيرات، والفتيـاتِ الطيبـات، تَـسومَهُنَّ أزواجُ الآبـاءِ سـوءَ العـذاب..، لابُـدَّ أنَّـكِ ستساعدينهنَّ، كما كُنتِ تقولينَ، عندما أقرأُ القصصَ والأساطير لك....

نـامي، نـدى، نـامي! لـنْ يأتيَـكِ بابـا عمّـا قريـب! لأنـه مَرمـيٌّ فـي الشـريطِ العازلِ بين سـاحلِ النسيان وتـلالِ الـذكرى... إنـّه مـسافرٌ إلـى حدودِ مملَكَةِ البَلّور. هناكَ يسمَعُ هَمَساً، ويـرى أبخـرَةً...، يُطِلُّ يسـارَ القلب، فلا يـرى غيرَ بياضٍ بلّوري، تضيعُ فيه الأبعادُ والمسافات...

أهـوَ «العَـدَم»؟!

....

يَسمَعُ خريرَ سائلٍ،... أتُراها نافورةً مستَتِرَة، أو هـذا نشيجُ مـاءٍ يُغنّي لحناً في مَدحِ الصَمتْ...!!

....

صـندوقانِ كبيـرانِ جـوارَ الكتفَـيْن، يلفُظـانِ أرقامـاً خـضراءَ، ويتجشّآنِ أصواتاً غريبـةً،... أسـلاكٌ وأنابيبٌ، مثل أفـاعٍ نـحيفة، تبـدأُ مـن الجانبيـن، وتنتـهي في جسدٍ لا يشعُرُ بـه... يَحارُ فـي الإجابَـةِ عـن سؤالٍ يُباغتُهُ «مَنْ يَحملُ عَنْكَ خَيالَكَ؟ فأنتَ مُنهَكٌ، لا تَقوَى على مَنْعِهِ منَ السقوطِ على صَلابَةِ الواقعْ؟!»... يُعَلِّقُ السؤالَ على رَفِّ المُؤَجَّلات،.. يَستديرُ فيرى كائناتٍ خَضراءَ، وأخضَرُ حتى الخِمار، لا يدري أبوكِ

لماذا يتراكضون، يقرُصُونَهُ في الوجه ويضربونَ خَدّه بين حينٍ وحين...، يصيحون، لكنه لا يفهمُ ما يجري... يَوَدُ لو يسألُ...، ربما يكونُ سألَ، لكنَّ لسانَه ثقيلٌ، ثقيل، مثلُ رصاص...

يُغلِقُ عينيه كي لا يرى «العالمَ الأخضَرَ» ومخلوقاته، يؤَمِّلُ نفسَهُ بسهوبٍ وسفوحٍ، يَعدو فيها خَلفَك، يَلهثُ من الركض، فلا يلحَقُ بك. وأنت، أنت تُكركرينَ، كأنَّك ستفرُدينَ جناح المَرَحِ، تطيرينَ معَ أسرابِ البطِّ البرّيِّ، صوبَ مَنبَتِ الدفء...

لكنَّ رجاءَهُ لمْ يُثمِرْ!

.....

تَتَلاشى من حوله دائرةٌ دوّارةٌ من الوجوه. يُداهمه بوليرو رافيل، خَفيضاً، مثلَ حفيفٍ... يرتقي واثِقاً بعنايةٍ، صُعوداً، صُعوداً، بمُظاهَرَةٍ من الوتريَّاتِ والنحاسيَّات والصنوج والطبول... حتى يُهَيِّجَ البحرَ، لحناً يتواصَلُ صداه، حتى بعدَ الانتهاء، ويتملَّكَ كُلَّ حواسِّه وأحاسيسه....

يقولُ لنفسه، وهو يقفزُ من السرير، دوشٌ باردٌ، هو ما أحتاجُه الآن. مُمتَلئاً بالبوليرو، يقفُ تحت الدوش، يتراءى له أنَّهُ يسمعُ رنينَ التلفون.. تطيرُ به الفرحَةُ، يقفزُ من تحتِ الدوشِ حافياً نحو الصالة، يُجَرْجِرُ خَلفَه خَيطاً من الماء يتَقَطَّر، يكادُ يزلقُ به ويسقط.. وقبلَ أنْ يصِلَ إلى موقِعِ التلفون، ينتبه إلى أنه تَرَكَ السمّاعةَ جانبَ الجهاز.

إذاً، لمْ يرنَّ التلفون. أتكونُ حواسُّه قد خدَعَته إلى هذا الحد؟! أمْ أنَّ خُدعَةَ الحواس، وبسببٍ من وحدته، قد بَنَتْ حولَه عالماً موهوماً تماماً؟!

قبْلَها، حاولَ الاتصالَ بصديقٍ له كان على موعدٍ معه وآخرين اليومَ، ليذهبوا إلى مطعمٍ تعزِفُ فيه فرقَةٌ جاز قَدِمَتْ إلى برلينَ من نيو أورليانز.. ويَبُلُّوا ريقَهمْ بالبيرة الجيكية... بيدَ أنَّ أحداً من الأصدقاء، الذين فارقَهم متأخراً مساءَ الأمس، لم يَرُدَّ على التلفون.

اتصَلَ بالمستشفيات ليسألَ عنهمْ، ما من أحدٍ يرُد.. مراكزُ الشرطة، صامتةٌ أيضاً.. اتَّصَلَ بعدة مكاتبَ لشركات التكسي، ليطلُبَ واحداً، يدور به علىُ بُيوتهم ويتأكدُ من أمرٍ مجهولٍ... لا أحَدَ يردُ على الهاتف... المدينةُ، بشوارعها، بساحاتها ومحلاتها تبدو قَفراً، منقوعةً بسائلٍ أزرقَ يميلُ إلى السواد! ما من ضوءٍ، إلاّ في شقّته، في الدور الحادي عَشَرْ! كأنها في ليلة «شامي غريبون»[1].

فَتحَ التلفزيون... الشاشةُ مَلأى بنُثارٍ ثلجيٍّ، مصحوبٍ بخرخَشَةٍ.... الراديو، هو الآخرُ أخرَسُ....

---

[1] تقليدٌ شيعيٌ تُطفأُ فيه أنوارُ المدينة، في الليلة التي تلي استشهاد الحسين في واقعَة الطَفِّ، تطوفُ فيه مواكبَ ترتدي السواد وتحملُ شموعاً، في محاولة لاستذكار محنة من بقيَ من عائلة الحسين وأتباعه، حينَ أُخذوا سَبَايا إلى الشام، في الغُربة. ويبدو لي، مما يتبَيَّن من التسمية، وهي غير عربية، أَنَّ التقليدَ المذكورَ ابتَدَعَهُ شيعةُ إيران، فأطلَقوا عليه هذه التَسميَة، التي تعني ليلَ الغرباء. ي.ع

إذاً، هو وحيدٌ في المدينة، ويمكنه القولُ إنَّ المدينةَ أصبحَتْ ملكَهُ!... ولكن ماذا يفعَلُ بمدينةٍ مُصابَةٍ بجلطَةِ دماغٍ في الديموغرافيا والجغرافيا، هَمُّها الوحيد اللَّعبُ على أعصابه المتوترة...، تكاد بَوصلةُ الوقتِ تُجَنُّ في شوارعها وأزقَّتها، حتى لكأنَّ موشورَها أُصيبَ بالعمى... لقد غَدَت مدينةً تعيشُ زمناً لا أرضيَّاً، خارجَ معاطفِ الأزمنة...

من مكانه في الطابق الحادي عَشَرْ، يُحاولُ، خَلَلَ العتمة، أن يتبَيَّنَ خطوطَ الترام، التي لا تسيرُ مستقيمةً كخطوطِ ثيرانِ الحرْث. التَمَعَ في خاطره سؤالٌ، أتكونُ المدينةُ كلُّها تشتركُ في مَزحَةٍ سَمِجةٍ معه، أطفَؤوا الأنوارَ ووقفوا يتَرَصَّدُونَه خلفَ الستائرِ؟ وإلى متى تستمرُّ هذه اللُعبة؟ لمْ يَلبَثْ أنْ أهمَلَ السؤالَ، فحديقةُ الحيوان، في الشارع المقابل، هي الأُخرى فَرِغَتْ.

أتُرى أنَّ الحيواناتِ غادَرَتْ أقفاصَها، أزواجاً، أزواجاً، لتَلحَقَ بسفينةِ نوح؟ وهلْ أنَّ طوفاناً آخَرَ على الأبواب؟

يُغمِضُ عينيه بقوّة، فيتَصَوَّرُ أنَّ الناسَ والحيواناتِ عَقَدَتْ معاهدَةَ عدمِ اعتداء، قبْلَ أنْ تبدأ الرحيل...

يُفَكِّرُ هل حَلَّتِ القيامةُ في هذه المدينةِ فقط؟ و أيُّ ذنبٍ اقتَرَفتُ، كي أُعاقَبَ بهذه الوحشَةِ القاتلَة؟!

لا يحتاجُ المرءُ كثيراً حتى يُجَنَّ في مدينةٍ مهجورةٍ، سَكَنَتْها الأشباحُ في ظرفِ ليلة، وتَبَخَّرَتْ فيها كلُّ أشكالِ الحياة والعيشِ

المشترَك... وعندما تنعَدِمُ إمكانيَّةُ الحديثِ مع أحَدٍ، يغدو الجنونُ قريباً جداً، يُمكِنُكَ أنْ تَمَسَّهُ باليد المجرَّدة..!

.....

.....

يُعيدُ السمَّاعةَ إلى مكانها، فوقَ الهاتف، ويَرجِعُ إلى الحمّام، يُدَندِنُ بلحنِ بوليرو عالياً، دونَ خوفٍ أن يُزعِجَ أحَداً من الجيران، فالكلُ قد رَحَلْ. وعندما يمرُ بالمرآة، ينتبه إلى أنَّ الساعاتِ الماضية، أضافَتْ إلى جبهته وما تحتَ العينين عدداً جديداً من الغضونِ والتجاعيد. ورغمَ بياضِ شعرِ رأسه، يتراءى له أنَّ شعره ازدادَ بياضاً. ثم لا يلبَثُ أنْ يكتَشِفَ في المرآةِ أمراً يُزيد من قَلَقِه وحيرته: فالمرآةُ تعكِسُ قناني الكولونيا والعطور، بشكلٍ خاطئ....! أو على الأقل، لا ينطبقُ مع الواقِع.

القناني، التي على يمين صحنِ الزهور، تبدو في المرآةِ على اليسار، يُديرُ رأسه عدةِ مرّاتٍ بين المرآة والأصل.

يَهُزُ رأسه حيرةً، غيرَ مُصَدِّقٍ، ويقولُ لنفسه: حَذارِ من هذه المرآة الكاذبة!

فحتى عيناه لا تَبدوان بالحجم نفسه في هذه المرآة اللعينة.. فاليسرى أصغرُ ومرتفعةٌ عن مستوى شقيقتها اليمنى. وشحمَةُ أُذنه اليمنى أطولُ من مثيلتها اليسرى. وعندما تَطَلَّعَ إلى صورةِ جسمه كاملاً في المرآة، لاحَظَ أنَّ خصيتَه اليُمنى بعيدةٌ، أسفَلَ أُختها اليسرى.....

كلُ ذلكَ وطَّدَ اعتقادَه بأنَّ المرآةَ مغشوشة! لكنه سُرعانَ ما فكَّرَ،

لماذا يتَعَيَّنُ علَيَّ أن أُصَدِّقَ المرآةَ، في وقتٍ أعرِفُ فيه تماماً أنَّ موقعَ قناني العطور، عكس ما تُظهره المرآة!!

خَرَجَ إلى الشُرفَة، فإذا الليلُ ابتَلَعَ آخرَ خيوط الضوء، ونَزَلَت العتمةُ بالصمت المُعَلَّق في الهواء، إلى مستوىً مُنخَفضٍ يكادُ يُلمَسُ باليد، لكنه لا يراه....!

طَلَعَتْ «أناه» من عنده وقالتْ له: أحْسِنِ الإنصاتَ، فإنَّ مَنْ يُجيدُه يغدو مشروعَ راوٍ يُتقنُ الحَكَايا ...

قالَ: هذه مدينةٌ لا تَصلُحُ للحَكايا ... نحنُ جئنا من مُدُنٍ عتيقة، كنّا نَحرِثُ النهارات بإزميل الشوق كي نحصدَ الليلَ حَكايا. ونروحُ نَتَحَلَّقُ - بعدَ العشاء - حولَ موقد النار، (المَنْقَلة أو المَجْمَرَة) فَتَدورُ كؤوسُ الشاي وتتعالى أبخرَةُ الحَرمَلْ، وتَبلُغُ الفرحَةُ واحدةً من ذُراها عندما تَرفَعُ الجَدَّةُ الغطاءَ عن صحنٍ كبيرٍ، لما كانتْ تُسمّيه «فاكهَة الشتَه»، هيَ تَمرٌ أشرَسيٌ وجَوز، بعدَها تَستَهِلُ الحكايةَ بلازمَةٍ أثيرةٍ عندَها: «يا سامعين الصوت، صَلّوا عالنبي...» فَنُصَلّي ونُكَبِّرُ بسرعة، نَستعجلُها لبدء الحكاية، كي نَتوهَ في عوالمها، دون أنْ ننتبه إلى سُلطانِ النومِ حين يُداهمُنا بَغتةً. كنّا، نحنُ الصغارَ، نَنْحَشِرُ ببعضٍ طَلَباً لمزيدٍ من الدفء والشجاعة، إذا ما اشتَدَّ توَتُّرُ الحكاية. فالحكايا كانت فتنةَ المدينة وأزقّتها، فتنةٌ مُعَلَقة كفوانيسَ ماكرةٍ تُوهِمُ بالانطفاء، كلما ازدادتْ شحوباً، أبصَرَ ليلَ المدينة واتَسَعَتْ رؤيَتُه، لرواةٍ سهّيرينَ، لا يمَلّون أنْ يُلقُوا في موقدِ السهرَة، ما استطاعوا من حَطَبِ الحَكي.

لذلكَ فإنَّ برلين لا تَصلُحُ لهذا اللون، لأنها خَلَعَتْ قفطانَ الحَكيِ، أودَعَته متونَ التدوينِ، وانصرَفَتْ إلى ألوانٍ أُخرى من السَهَر.....

❖ ❖ ❖

فَتَحَ باباك عينيه مرةً أُخرى علَّه يرى وجهَك ولَوزَ عينيك، بيدَ اَنّه سَقَطَ في كمينهمْ، قالوا سنعمَلُ فتحَتَينِ في الرقَبَةِ، نَلِجُ خلالهما إلى داخِلكَ....

... افعلوا ما شئتُمْ، فليسَ لديَّ ما أخافُ من كشفه، فَصَفحتيْ بيضاء، وسريرتي نقيَّةٌ بيضاء...، اتركوني أنامْ، لألحَقَ بالحُلُمِ....

❖ ❖ ❖

انتهَتْ «الحفلة»، وما تَرَسَّبَ منها سوى صريرٍ في الأُذنِ.... نَقَلوه إلى غرفَةٍ، ذات إنارَةٍ هادئة مريحةٍ، تشبه أكواريومْ سمك الزينة... قالوا له مرحباً بكَ مرةً أُخرى في هذه الدنيا ... فعلنا كلَّ ما نستطيع.. والباقي عليك...

هَمُّوا بالخروج.. صاحَ باباك، يا ندى، قفوا باللّه عليكم! لا أفهمُ شيئاً!

..... عليكَ أنْ تَجِدَ حلاً للإضراب...

..... أيُّ إضـراب؟ ومـا علاقـتي بالإضـرابات؟ أُريـدُ أنْ أُواصِـلَ حُلُمي، كي أعودَ إلى عائلتي، فصغيرتي لا تُطيقُ انتظاري....!

.. كِليَتاكَ والمثانةُ في حالةِ إضرابٍ،.... تَصَرَّفْ!

.....

.....

مثلُ ستارةِ مَسرَحٍ، أسدَلَ الأجفانَ بِبُطء، وسافَرَ إلى موقِعِ «الإضراب». جَلَس قبالةَ المُضربينَ مُستكيناً، لا يَلوي على قولٍ.....

.....

.....

كَسولاً، كَسولاً، يَتَفَصّدُ الزمنُ، أصَمَّ لا يَستَجيبُ لاستغاثَةٍ بالتَّعجيل... يَطِقُ كحبّاتِ مسبَحَةٍ..... على إحدى الكليتين، سَقَطَتْ دَمعَةٌ، قبلَ أنْ يُمسِكَ بها .. انتَفَضَتْ، إحداهُنَّ غَمَزَته، أنْ عُدْ بحركة بطيئة إلى مكانك، خَضَّتْ رأسَهَا ورَفَسَتْ جارَتَها، استأنفَتا الرقصَ رويداً، رويداً.

.....

.....

أحَسَّ بكفٍّ كبيرةٍ وثقيلةٍ، حَطَّتْ على جَبهَتِه، أفاقَ، أو رأى في المنامِ أنه أفاقَ...

رأى كائناً خُرافيّاً في حجمه، مُلَفَّعاً بالأخضر، من الرأس حتى القَدَمِ، وخِماراً أخضَرَ يَتَهَدَّلُ عندَ الذقن، يَكشِفُ عن ابتسامةٍ حياديَّةٍ، لا

تَشي بشيء... إلى جواره، تقفُ امرأةٌ بسُحنةٍ خُلاسيَّة، صغيرةُ الحجمِ، مُجَعّدَةُ الشعر، تنظرُ حانيةً مثلَ أُم...

مَـرَّ باباك، يا نـدى، بكاميرته، مُـتَمَهِّلاً، كـي يستوعبَ المشهَدَ ويفهمَ لُغزَ حيرَتِه........

ابتسَمَ المخلوقُ «الخرافيُّ»، حاملاً حُزمَـةَ أوراقٍ... صَدَرَ صـوتٌ رقيقٌ، غيرُ معلومِ المصدر: «نرجوكَ أنْ تُوَقِّعَ هذه الأوراق....»

..... «مَنْ أنتمْ؟ أينَ أنا؟ ولماذا أُوَقِّعُ؟»

..... «قُمنا بتدخُّلاتٍ على جسمكَ، يحظُرُ القانونُ القيامَ بها دونَ موافَقَةٍ خَطيَّةٍ مُسبقَةٍ من صاحبِ الأمرِ، أو أحَدٍ من ذويه... جاؤوا بكَ إلى هنـا، إلاّ أنَّكَ لم تكن هنا ...! لذلكَ نرجوكَ توقيـعَ هذه الأوراق، كـي لا نتَعَرَّضَ إلـى مُساءلةٍ قانونيـة.. خُلاصـةُ الأمـر، انتَزَعنـاكَ مـن فـمِ العفريت، وجرجرناكَ لهذه الدنيا ...»

حينـها، أحَسَّ بوَشوَشَـةٍ، تـشبه تـصفيقاً مكتومـاً، يَـصِلُ مـن بعيـــد .....

بعدَ شيءٍ من الترددُ، وَقَّعَ بابا، كي يعودَ إليكِ خلالَ أسبوعٍ أو اثنينْ...

....

....

أشفَقُوا علَيكِ، فأنقذوني، لأنَّكِ ما زِلتِ صغيرةً على اليُتمِ، يا ندى!!

تنويعاتٌ، تَشبَهُ الهذيان

بـلا مطـرٍ، سـقفٌ مـن سَـحابٍ لـبلادِ الرافـدين...، العـصيَّةِ علـى التَّوصـيف..، الـصغيرةِ مثـل حبَّـة شَـعير..، الغنيـة، المُزَخرَفَـة كطـاووس..، المطوَّقـةِ الممزَّقـةِ بكمـائنِ الماضـي الجديـد ..، الـسبَيَّـة عبرَ الزمـان..، بـلادُ الرافدينِ حرةٌ غدَت الآن..، نعم، هـي حرَة! لهـا حريـةُ الانـزلاقِ والانفـلاقِ والاحتراق..، مـا أسـعَدَها بـلادُ الرافـدَين تُطَلِّقُ أهلَهـا دونَ صـداق...!! لا نَزالُ نُحبُّهـا، لُوثـةً وَرَثنـاهـا ... وإن انتَبَـذَتنـا الـبلادُ إلى المجهـول، نُحبُّهـا،.. إن مَسّنا رَذاذُ حَفيفِ ذكـرى، ينـتفضُ القلـبُ مـن يَبـاسٍ، ويَـرقُصُ الخيـالُ تائباً إلى منابعه الأولية...

كأسَينِ أشرَبُ، كي أُبقي الخيالَ على الحيادِ، فأُبعِدَهُ عـن المَجـاز، حتـى لا أبولَ علـى «اللابديل»!!

❖ ❖ ❖

الـوطنُ عُرضَـةٌ لــ «الاسـتقلال» علـى طاولـةِ «المفاوضـات»..!.. و«الاستقلالُ» مَعروضٌ للتوبَة.. فـلا أحَدَ يـستقلُ ولا أحَدَ يـتوب..!.. ولا

أحَدَ يغضَب[1]، لأنَ الغضَبَ يُزيلُ الخوف.. ولا أحَدَ يستطيعُ العيشَ من دونِ خوف... فكيفَ السبيل...؟!

فـ«الاتفاقيَّةُ الأمنية» تُطالبُنا عملياً، وإلى زمنٍ نجهله، بأن نُقايضَ موتنا «الآمن» بحياة المحتلين الموتورة، كأنَّ علينا إنقاذَ الاحتلال من مصيرِه...!

❖ ❖ ❖

إذا ما تَساءَلتُ مُتململاً، وبسذاجة، ماذا يُريدُ المُحتَلُ في وطني! سأُتّهَمُ فوراً بالإرهاب و«الصدَّامية»... وما أدراكَ بماذا...! لأنَّ سؤالاً كهذا، تجديفٌ في نظرِ مَن باعوا وبايعوا... ذلكَ أنَ شرعيَّةَ أيِّ فَعلٍ أمريكيٍ تأتي من «امتلاكه حقاً لا يمتلكه سواه»![2] فهو ليس كبقيةِ خَلقِ اللّه.. هو خارجَ القوانين والأعراف الإنسانية والدولية... تماماً مثل أبناء عمومتنا!!

ليس مهماً ما سيُقالُ عنّي، فأبسطُ ما يمكنُ أن أقولَه للمحتلّ، دون أن أكون «إرهابياً»:

«أخرج من بلادنا، أخرج من هوائنا ومن حياتنا.. وتَفضَّلْ علينا

---

[1] «من لا يمتلكُ القدرة على الغضب، تَعْوِزه الشجاعة!» سقراط.

[2] النازيَّةُ الألمانية، رفعتْ في الحرب العالمية الثانية شعار «من ليس معنا، ضدنا» أعاد بوش الابن استخدامه (ي.ع)

بأن تأخذَ زِبالتَكَ معك، ممَّن داهنوكَ وصفّقوا لكَ، خذهم معكَ دون أن تستَفزَّنا بإبقائهم بيننا ...»

... وسأعرضُ على بوش «الفهيم» وسواه، مقايضةً، بأننا «سنُفَكِّكُ خطابَنا هذا، مُقابلَ أن يفكّكوا قواعدَهم ومعسكراتِهم في بلادنا»، بل أعِدُهم بأننا، وبالحماسةِ والشهامة نفسها، «سنحتجُّ إذا ما غزَت قواتُ بلادنا بلادَكُم ودكَّت طائراتُنا مُدُنَكُم وضواحيَكم..!!»

❖ ❖ ❖

العجيب، ليس في الاحتلال الأجنبيّ، إنما تَقهرُني تلك العقول السائدة، التي تدعو إلى الامتثال المَدّاح لما يُفرَضُ علينا من سكينةِ القَهر... أن نكونَ طيّبين، طيّعين ومتحَضِّرين!!

أن نفسحَ في المجال للمحتلّ وزبالته بالتربُّعِ على أقدارنا ومستقبلنا ... لأنها أوكلت مهمة الصراع مع المحتل، من الحاضرِ إلى غيبٍ لا يُدرَك... وإلى أجيالٍ لم تُولَدْ بعد ... واكتَفَت بملاحقَةِ فكرة السيادة والتحرير، باعتبارها المسؤولةَ عن جفافِ الرغيف ومياه الشرب... عُقولٌ أسّسَت، في سياقٍ طائشٍ، لانتهازيةِ تحالفاتٍ، هي مُقَدِّماتِ الانتحار الذاتي والاغتيال معاً..بلا شروط تفاوض، وبتبرُّعٍ كريمٍ في هجاء الذات والذكرى، علَّها تُؤخّرُ عمليةَ الذبح!!

لذلكَ لم يَعُد في وُسعِ أحَدٍ ادعاءُ اللا فهم أمام «سُرياليَّةٍ»

سياسيَّةٍ تُنتِجُ موتاً فاضحاً... فالمشهدُ واضحٌ.. والقَتَلَةُ واضحون.. حلفاءُ القَتَلَةِ واضحون.. وأصدقاءُ حلفاءِ القتلة واضحون أيضاً، لمَن يُريدُ أن يرى...!!

أي، نعم! كلُّ هذا وأزيَد، يجري في بلاد الرافدين لينسجمَ مَشهَدُ الجريمةِ مع حوافزِها، ويختَلطَ الوضوحُ النافرُ مع الغموضِ الأشَدِّ وضوحاً لخارطةِ قوىً، تُمَزِّقُها صَلابةُ القوى الماضويِّة والقومانية الأشَدِّ إخلاصاً لمشروعها المنخور، في زمن مائعٍ ميوعةَ التحالفات اليائسةِ اليائسة، منذُ اعتَذَرَ الوعي عن شبابه، ودخلَ «شيخوخة الفكرَة»!!

لكن، لابُدَّ أن يكونَ لنا قَمَرُنا الأرضي..، عندها سيصعدُ الإلهام من الأرض، بَدَلَ أن يهبطَ من السماء، عندما يرجِعُ الوعي إلى أصله...، بعد أن قامرَ كثيرون على ولادة المستقبل من هذا الحاضرِ، المفتوح على أنفاقٍ لا نهايةَ لها ...!

حُلمُ «منتصف ليلةٍ شتوية!!»

... حَفَّزَني، ولا أقولُ استفَزّني، قولُ صاحبٍ لي.. «يا أخي، موضوعكَ واحدٌ... نفسُه، تعودُ له.. وبشكلٍ حادٍّ..!!»

أقولُ له، قد يكونُ صحيحاً... لكن ما العيب في ذلك؟ ألأنَّ الموضوعَ تَلَبَّسَني وتَشَرَّبَني فآتيه من مناحٍ منوَّعَةٍ؟! من رفيفِ أجنحَةِ الطيرِ، من شذى الزهرِ.، من رائحة الطَّلع، من شَبَقِ أُسُه الحرمان... من الحنينِ لموضعِ الذكرى...الفرحةِ والعذاب..؟؟.. أُحاولُ أنْ أنأى عن إجترار المفردةِ والصورة والموسيقى... مرَّةً تَراني هازئاً، وأُخرى حزيناً ناقماً... ثم عاشقاً،.. حتى نعلَ بُنَيَّتي، الذي لم تَطأْ به «أرض» أبيها وأجدادها!!

وهلْ بَقيَ ما يُمكنُ أنْ يُلامَسَ بشفرةِ وردة في هذا القَفرِ والخَواء..؟ في وطنٍ يَصلبُني لأنني، فقط، حمَلتُ ظلِّي على كَتفيْ وارتَحَلتُ؟ ألأنّي لم أَعُدْ قادراً على رسمِ قُلامَةِ ظفرٍ في أيِّ مكانٍ منه؟! هو، الذي أضحى سيبيريا، بلا معطَفِ فراءٍ.. بلا زحّافاتٍ.. بلا بُخارٍ يَصّاعدُ من الأفواه، سيبيريايَ أنا ...!!

.. ومع ذلكَ أحنُ إليه وأُحبُه كحُبّيَ للأمواجِ، لا المُنقذينَ، للحريةِ، لا الأحرارِ، للثورةِ، لا الثوارِ.. للأوطانِ، لا الدهماءِ... أُحبُهُ ببروقه ورعوده، بسماءٍ مُكفَهِرَّةٍ على المدى.. كي أخافَهُ وأخافَ عليه...

.....

معَ حبري، أحزاني تسيلُ.. أبحثُ عن كُثيبٍ، في هذا الوطنِ الجَهمِ، أُنزِلُ من عليِّه رايةَ الإستسلام[1] وأرفعُ رايتي: «بكل خُشوعٍ ندعوكَ، رَبَّنا، جَنِّبنا مَعصيَةَ الخُنوع!!»

.....

.....

وغدٌ وابنُ حَرامٍ مَنْ يقطعُ عليَّ طفولتي، وإلاّ سأعودُ «راشِداً!» والويلُ كُلُ الويل.... لأني سأواصلُ الحلمَ...

لنْ أغفرَ لمنْ سيتصلُ بي منتصفِ ليلةٍ.. كذا، من الشهرِ كيتْ،.. من السنة.. كذا القمرية، أو ما يُقابلُها في التقويم الميلادي...لأني سأكونُ مُنشغلاً بحلمٍ... أرى فيه قاعةَ محكمةٍ فسيحةٍ.. فسيحةٍ جداً.. جداً...

.....

سَفيهٌ وخبيثٌ مَنْ سيقطعُ عليَّ الحُلمَ، لينقُلَ إليَّ خبراً، أيّاً كانَ، سارّاً أو مشؤوماً... نكتةً أو نميمةً... مَنْ يريدُ أنْ يُناقشَني في خطأ

---

[1] «لو في يدي لحبستُ الغيثَ عن وطنٍ مستسلمٍ وقطعتُ السَلسلَ الجاري. بَيعَ الدراهمِ باعوا واشتروا وطني، فكلُ عشرةِ أميالٍ بدينارِ» الجواهري.

نحوي أو إملائي ارتكبتُه... أو يجادلُني في أمرٍ فكريٍ أو عاطفيٍّ وما شاكل.. لأني سأكونُ مُنشغلاً بمحكمةٍ خُرافية في سعتها[2] تستلزِمُ عرَباتٍ للتنقّلِ فيها ...

.... سأكونُ مُتابِعاً فيها كُلَّ التفاصيل... من قفص الاتهام، الذي سيأخذُ أكبرَ مساحةٍ من القاعةِ إيّاها ... إلى منصَّةِ الشهود، والقضاةِ والمحلَّفين...

نعمْ، سأكونُ مُنشغلاً بأدق التفاصيل، كميزان العدالة ألاّ يكون مائلاً أو مُنحرفاً، لا قَدَّرَ اللّه!، ومطرقةِ رئيس المحكمة، وأروابِ محامي الدفاع والنائب العام... حتى طقمِ منادي المحكمة...

.... المُتَّهمون؟

أعرِفُ أنَّ صهريجَ فُضولكم يغلي، لمعرِفَةِ مَنْ سيكونُ هؤلاء، الذينَ خُصِّصَ لهم هذا القفص الخُرافي في حجمه!!

.....

انتظروا سأسوقهم، خلافاً للأعراف الحضاريَّة، سأسوقُهم كالنعاجِ بالعصا، «أكوامٌ» من الدَيّوث (س) ينَ!، الخَوَنَةِ والدجّالينَ، النهّازينَ والسماسرة، الأفّاقينَ واللصوص والقومانيين، المنافقينَ والمُتَنَطعينَ، وكلِّ أولئكَ، الذينَ لا ذِمَّةَ لهم، سِوى «اللي ياخُذ أُمّي،

---

[2] إذا كان يحقُ لصاحبي أن يحلمَ بمرآةٍ خرافيَّةٍ بحجم العراق، يضعُها فوق جبلٍ عالٍ كي يرى العراقيون صورتهم الحقيقية فيها، لماذا لا يحقُ لي أن أحلُمَ- مجرد حلم يا ناس!- بمحكمةٍ خرافية..؟؟ (ي. ع)

أصـــيح لـــه عَمّـــي!»، مِمَّـــنْ يراهنـــونَ علـــى «ســـحبةِ» اليانـــصيب السياسي...!!

... لن أُسَمّيَ أحَداً الآنَ، لا تعَفُفاً، بل لضيقِ المجال!، لكنَّ فيهم رؤســاءً، وقـادةَ أحـزابٍ وطوائـفَ وأقوامـاً وعـشائرَ و«تَكايـا».... وزراءاً وأعضاءَ برلمان، كُتّاباً، شعراءَ، قَصّاصينَ ومثقفين.... إلـخ

.....

.....

وإن بَـرّأتْهُم المحكمـةُ، سـأخرُجُ علـى الآلهـة بعـصايَ... إذْ لا يُمكـنُ لـ«أُمَّةٍ» أنْ تكونَ بريئةً بكاملها ...

مَـنْ المُذنبُ فـي هذا الخـرابِ والحضيض، إذاً؟

... أأكونُ أنـا؟؟

هـاجَرْ

لإبنِ الشَطّ

للريـحِ الصفيرُ..
لـ«الشرقـيِّ» مُدَوَّخاً، تائهاً بينَ الضُلوع، نشيجٌ،
ولفَحيحِ «ضيقِ الصدر»، رَيّا،
لضفافِ المفردات، عَطَشُ النَجيلِ،
للمَنـسيِّينَ علـى قارعـةِ الاسـتفهام غَمــزُ الـشُهُبِ تَجــرَحُ جـبينَ الظُلمَة،
وللمحرومينَ حسرةٌ حَـرّى، أضَلُ من رسالةٍ غُفلَ العنوان...
ولعَتمَـةِ «الـلا أدري» كـلُ الفـضلِ علينـا، فلولاهـا مـا تُهنـا فـي مجـاهيلِ النَبشِ عـن ضـوءِ أسئلةٍ للفرحـةِ وَلاّدةٍ..
بهـا، قـد نَصيَّدُ النسيانَ مـن لُفافـةِ تبـغٍ تُجَنِّنُ الرَبْـوَ..

❖ ❖ ❖

لهاجَرَ، أُمِّنا، نبعُ الجنّة،

ولـ«هاجَرَ» عَطَشُ الرضيعِ لِحَلمَةٍ... أرَقْنَا لها دِنانَ رِضابِ الصحو، وعسَلَ الأحلامِ مُحَرَّقاً بشواظِ شَبَقٍ لا يرتوي.

رُحماكَ، يا قطا «هاجَرَ»، انتظرْ!

رُحماكَ، رُحماكَ، سَتَقتُلُنا إنْ أجْفَلتَها، يا قَطاها!

قدْ يَفْلِتُ مسمارُ أمانِ «الرُمَّانة» بيننا!

تَتِكُ.. تِكْ، تِكْ، تِكْ.. تِكْ

.....

فنوغلُ اندساساً ببعضٍ، حدَّ الشهقةِ المُشتهاة..

ومِنْ بَعدُ، فليأتيَ الطوفان..!

تَمَرَّسنا، «من قاعِ اليأسِ، نَستولِدُ قِمَّةَ الأملِ»،

نَبقى ساهرينَ، حتى ينامَ الليلُ فجراً..

فنحنُ من قبائلِ الغبارِ، والضجيجِ، والثرثرةِ،

قبائلُ تسبحُ في هُلامِ الرؤيا،

تَتَحسَّبُ المسافَةَ بينَ الرملِ والسراب،

لا تَتَجرَّعُ جِراحَ عشراتها بصخورِ «الدُنيا»!...

❖ ❖ ❖

و«هاجرُ» هيَ، هِيَ، على سِرِّ جَدَّتِها سالومي،

لا تَملُ مِنْ هَذَيانِ عطرها،
تُرَقِّصُ فتنتَها على أوجاعِ النَشوَة،
تُجَمِّدُ تيهَ المفرداتِ على ضِفافِ الشفاه،
فَتَأسُرُ، حتى ظلالَ المعاني، لَمّا تَمُرُّ..
و«هاجَرُ»، سَمكةٌ، تنزَلِقُ بينَ أنامِلِ الحُلمِ،
عندما يكتملُ الحنينُ بدراً،
حينَ يُوشِكُ زَمَنُ القصيدةِ أنْ يَتَخَمَّرَ في جِرارِ الروح،
مَختومةً بآيِ الشوقِ،

❖ ❖ ❖

و«هاجَرُ» لا تَعتَصِمُ إلاّ بإزارِ الضبابِ،
تَتَكىءُ على ظِلنا، نُرَقرِقُ خَمرَتنا في «جراديغ» الشاطئِ،
أودعناها أزاهيرَ العُمرِ،
رحيقَ الصَبواتِ، مسكوباً على أرصِفَةِ المحضورِ،
نُخفيها بينَ جَنَباتِ البساتينِ، سَكْرَى بهدأةِ الليلِ، المهتوكِ
بوميضِ النجمِ وفوانيسِ «إبنة المنصور»،
علَّنا،... ثُمَّ علَّنا نُذيبُ وَحشَةَ الحاضرِ وعذابَ ما سيأتي!
نُفَتِّتُ الحسَراتِ جوعاً لمَقامٍ مبحوحِ «التحريرِ»، مذبوحِ «القرار»،
نقولُ للصُبحِ أينَ ضَيّعتَ الندى؟!

يَـرُدُ الـصدى.. «بذاكِـرةِ العُـشبِ، أو رُبَّمـا بـدانتيلِ قميـصها الداخلِي، هـاجَرَ»!

❖ ❖ ❖

تعالَ، يا ابنَ الشَطِّ نَنفضُ ثلجَ المشيخِ،
مَمسوسينَ، ندوسُ بأطرافِ الروحِ درابينَ الكريماتِ...
حتى شريعة الشيخ عبدالله،
نتوضأُ بماء الصُبَّةِ...
هنـاكَ، نَشَرنـا أحلامَنـا تَجِفُ على حصير الخوصِ،
حيثُ النايـاتُ المقهورةُ تبكي نبوءاتِ مصائرنا،
مُتأسيَةً، نَحوَنـا المـرايا تلْتَفتُ،
نعتَصِرُ سرابَ البـوادي،
ونُلَملمُ ما نَسَته الريحُ من بقايا أحلامٍ، في جرَّةٍ،
لا نكسرُها يومَ «المحَيَة»!
أحلامٌ لا تزالُ تدُقُ بابَ الغفوِ...
آهٍ من الأحلام!
وما فَعَلَتْ بنا الأحلام؟!
... تُحاوِلُ كَسرَ ظُهورنا فَقَرَةً، إثرَ فَقَرَةٍ!
أَتَدري كمْ هو مُمِلٌ ذلكَ الطائرُ يُغَرِّدُ لِذُلِّه في قَفَصٍ؟!

لا نـدري، يـا ابـنَ الـشَطِّ، لكـنَّ ثِقـاتِ اللسانِ يقولـونَ، «لا يَجـوزُ المَجـازُ فـوقَ الرُكامْ!»

فـإنْ كُنّـا لا نَجـرُؤُ علـى الكـلامِ بـصيغَةِ المُـتَكَلِّمِ، فـلا أقَـلَّ مـنْ أن نقـولَ بأنَّ حاديَ القافلةِ ضـريرٌ، كـاذبٌ وإنْ صَدَقَ..!

أنْ نكُـفَّ عـن حِلاقَـةِ ذقـنِ القنـاعِ كـلَّ يـوم، وطِـلاءِ ابتـسامَةٍ بالتراضي!!

أو أنْ نَفـرِدَ السبّابَةَ والوسطى، إلـى أعلـى،

أرَدنـــا وطنـــاً بـــ«الحـــلال»، لا «المتعـــة»، ولا «المِـسيار»، أو «زواج السروال»!!

وطنـاً نُعاشِرُ فيه الحريـةَ، دونَ خَـوفٍ أو وَجَلٍ،

وطنـاً يُقيمُ كرنفالاتٍ للحُبِّ، والصدقِ والإنسانْ...

وطنـاً نُغنّي له:

«عِشْ هكذا في علوٍّ أيها العلَمُ

فإنّا بِكَ بعدَ اللّهِ نعتَصِمُ»

لكنْ، يا سمير، بـي وجَـعٌ من أحـلامٍ تَتَذكّرُنـا، فتخجَلُ منّـا،

نحـنُ، الـذينَ شَحَذنـا سـكاكينَ ذبحنـا، غيـرَ مـرَّةٍ، ومـا كُنّـا ابـنَ هـاجِـرَ، ولا افتدانـا ربٌّ بكبشٍ!!

سَنَجُرُّ هودَجَ دَمنـا، أمـامَ «فُرسانٍ» رَكِبـوا كُثبـانَ الفُرَصِ...

نستجدي أكفـاناً لأئمَّـةِ «العُقـوقِ»، لِقتلـى الأحـلام...

ذُبحنا، يا إبنَ الشطِّ، صادقينَ،
ذُبحنا مُتردّدينَ،
وسنُذبَحُ مُخطئين...
لماذا نخسَرُ الصدقَ، طالما المصيرُ، هوَ المصير؟!
لماذا نُقايضُ الأمسَ في أزقَّةٍ زَلِقَةٍ؟
في محافلِ سالومي، تَبيعُنا بكمشةِ غَزَلٍ رخيص؟!
أو نَنتَشي بأنينٍ في موكبٍ حزينٍ؟!

❖ ❖ ❖

للخضرِ سَنُسرِجُ ظهورَ الماء، وننتظرْ.
عَلّهُ، فَوقَ حصانه الأصهَبِ، يأتينا بـ«هاجَرَ»،
تَستنفرُ خوابيَنا،
أو تُراهُ قدْ يأتي يُعلِّمُنا الحكمةَ...؟!
.....
.....
لكنْ، واحسرتاه...!!
قيلَ لنا: «ما زالَ هناكَ، عندَ مَجمَعِ البَحرَيْنِ، بنواحي طنجةَ، منشغلاً عنّا، يُعَلِّمُ كليمَ اللّه الصَبرَ»!!

شمعةُ أُمّي دمعةُ أبي

.. هيَ ليستْ «أم» مكسيم غوركي، وليست أُمّاً مُفترَضَةً في نص أدبيٍّ... إنما هي أُمِّي وأنا بِكرُها «العاق»! أضَعتُها، منذُ ظَنَنتُ أنني «امتلكتُ قضية!»... وكأنَّ «القضيّةَ» تستلزمُ أَنْ أهملَ أُمي وأُجافيَها!!

.....

ليس لديَّ كرسيُّ اعتراف سوى هذه الصحائف... سطوري، اعترافاتي....

(1)

عجيبٌ هو أمرُ الذِّكريات. أحياناً تأتيكَ بلا «دعوة»، تدهَمُكَ دون أنْ تَطرُقَ البابَ. قدْ تكونُ غيرَ مُهيَّأٍ لها، منشغلاً... تُلِحُّ عليكَ، تَهُشُّهَا... فتُعانِدُك، مثل طفلٍ شَقِيٍّ... وتظلُّ تُشاكِسُكَ كطنينِ ذبابةٍ عند الأُذنْ، حتى تستسلم لها .. فتَتَلَبَّسُكَ مزهوَّةً بـ«انتصارها» عليك! دون أنْ تتركَ لكَ حتى حريةَ اختيارِ ما تريد تذكُّرَه لأنها، ببساطةٍ تنهمر..

.....

قيظُ بغداد في الظهيرة، أكثرُ من لئيمٍ، ساديٍّ يتلذَّذُ بإصلاء الناس بسمومه، أحياناً يتمثَّلُ لكَ، فتراهُ يتلوّى موجاتٍ من الجحيم كلَهَبِ التنور، تُحسُّ به لا يُسيِّلُ القارَ في الشوارع فحسب، بلْ يُحرِقُ حتى هواءَ اللّه، يُشقِّقُ الشفاه ويُجفِّفُ الحلقَ والبلعوم، فَتَظُنُّ أنَّ دماغكَ سيسيلُ في جُمجُمَتك..!

في ظهيرةٍ من صيف عام ألف وتسعمائة وخمسة وسبعين، يومَ كُنّا «وديعينَ»، على كواهلِنا يرتخي عبءُ أنْ يُولدَ في العتمةِ قنديلٌ.. تَفَرَّق رَهطُ العاملينَ والعاملات في جريدة «طريق الشعب» وعاد أغلبُهم إلى بيوتهم، إلاّيَ. كان يتعيَّنُ عليَّ، إمّا أنْ أعودَ إلى «مطبعة الروّاد» في القصر الأبيض، حيث كنتُ «أسكن!» أيضاً، أو أنتظر حتى يحين موعد العمل في الصفحة الأولى عصراً. كنتُ متردداً بين الذهاب إلى المطبعة وبين البقاء في مكتبِ الجريدة حتى تتوفَّرَ فرصةٌ بسيارةِ رفيقٍ متوجِّهٍ إلى هناك أو بسيارةِ الجريدة، التي تحملُ الموادَّ إليها. خرج رئيسُ التحرير من غرفته، يبدو أنه أحسَّ بحَيرتي فدعاني للذهاب معه إلى البيت: «نرتاحُ قليلاً، ومن ثمَّ نذهبُ سويَّةً للمطبعة كي نخرج مبكرين، لأنَّ ثمة دعوة لحفل كوكتيل في السفارة السوفيتية، بمناسبة تعيين صاحبكَ لوبوف[1] مستشاراً أوّلَ جديداً للسفارة.»

---

[1] لوبوف تعرَّفتُ عليه في براغ أوائل السبعينات، إذ كان سكرتيرَ القسم العربي في مجلة «الوقت» - قضايا السلم والإشتراكية - حيث عملتُ لعامين. توطدت

... توجهْنا بسيَّارته الفولغا إلى بيتهم في الكرَادة- داخل (الزويَّة/ بوليسخانه). دخلنا الصالة، مُسدلةَ الستائر، اتقاءاً من جحيم شمس تتسلّلُ من الشبابيك. كانت الصالة مُبرَّدَةً نسبياً، قليلة الضياء، تُغري بالارتخاء والاستسلام لقيلولةٍ، لم أعرفْ لها طعماً منذ زمن بعيد. رمى أبو مخلص حقيبتَه اليدوية على أحد المقاعد في الصالة وولج إلى داخل البيت منادياً: «يُومْ، هذا يحيى يريد يسلم عليج، تره إحنه تغدينه بالجريده، بس رقي منكوله لا، شتكول يحيى؟» وهلْ لذي عقلٍ أن يرفضَ مثل هذا العرض؟!

دخلتْ الوالدة، فارعة الطول، وئيدة الخطو، تحملُ صينية بها نصفُ رقيِّة لا أشهى ولا أحبَّ للنفسِ منها تلك الساعة. سلّمَتْ «هلا بيك يُمّه.. يالله، بَرّدْ قلبك، عله ما يجي رزاق دا ياخذ حمّام..» نهضتُ، سلَّمتُ عليها ... تسَمَّرَتْ عيناىَ على نظّاراتها كبيرة الحجم نسبياً، كانت تحتلُ مساحة كبيرة من وجهها، وعُصابةٍ سوداء من البريسم، تَشُدُ بها رأسهَا باعتناءٍ ظاهرٍ. كانت العُصابة مرتَّبةً كأنها مكويَّةٌ...

خيطُ حُموضةٍ يجتاحني، مثلَ نصلٍ يغورُ في اللحم الحيّ، أو كتيَّارٍ كهربائيٍّ يلسعني على غفلة فيذكِّرني بأمي. شعرتُ بالغيرةِ من أبي مخلص، يحتفظ بعلاقة طبيعيِّةٍ مع أمه، يسكن معها، ترعاه ويرعاها، دون أيِّ تعارضٍ مع «القضية!»

الصَّداقةُ بيننا بحُكم الجيرة أيضاً، إذ كنَّا نسكن في نفس العمارة، وتعرّفتُ على عائلته وأصبحتُ قريباً جداً منهم...

من أينَ جاءني ذاك الخَبَلُ، حتى ركبني الوهمُ «أنّا أصحابُ قضيةٍ عامة، لا مكانَ فيها للشخصيّ، وفي أحسن الأحوال أن العائلة جزءٌ من المسعى العام؟!!»

(2)

يا لصفاقتي ونَزَقي! هَزِأتُ من خوفها علَيَّ، من أدعيتها، كانت تُجَنِّدُ الأئمةَ والصالحين كي يُطوِّقوني ببركاتهم....!

تركتُها تُبخِّرُ الحسرات على جمرِ انتظار، فتظلَّ نائمةً مستيقظةً، مثل «أهل الكهف»... يُقضُ مضجعَها وجَعُ الأمنيات بعودتي، لكنَّ كلابَ الكوابيسِ تمنعُها فَتَتُوهُ في غيبوبة صمتٍ، حتى تفيقَ على أوجاعٍ وأمراضٍ مزمنة، فتروحُ تُقيمُ الصلاةَ على روحها، حتى ينزلقَ مع دمعها كلُّ قَتْلى الحروب، والمساجين، عائدينَ ساخطينَ من عفونةِ «شجاعةٍ» دُفِعوا إليها بالسياط...

في ليلةِ القدر، من كلِّ عامٍ، تتوضَّأُ، تجلسُ في باحةِ الدار، مُطفَأةَ الأنوار... تُغطِّي رأسها بوشاحٍ (فوطه) أبيضَ، تُقَرفِصُ وتُشعِلُ شمعةً كبيرة، وتروحُ تقرأُ القرآنَ لساعاتٍ، مثل ناسكٍ متصوِّفٍ، على أمَلِ أنْ تنفتحَ أبوابُ السماء فتستجيبَ لأدعيةِ المؤمنين...

دموعها تُسابِقُ «دمعَ» الشمعة...

لم يكن لديها ما يُقلقها على الآخرين من الإخوان والأخوات،

لأنهم بعيدون عن السياسة ومخاطرها!... كانت تسهرُ وتنزفُ دمعاً متضرِّعةً من أجلي، في وقتٍ كنتُ أغُطُّ فيه في نومٍ عميق أو شخيرٍ مُقرِف، دون تقديرٍ لمشاعرها وأحاسيسها. إذ كانت، كأيِّ أمٍ، تُقابلُ «طيشي» بـ:

– الله يهديك، إبني، ويعمي عيون الظِلاّمْ عنّكْ –!

(3)

قامتُها الزاهدةُ في الطولِ، كي لا أقولَ القصيرة، أصلاً، طوتها السنونَ والأمراضُ، اشترتْ لها قبراً، وهي تقتربُ حثيثاً من الخامسة والثمانين، عند مقام هود وصالح[2] كي لا تكونَ بعيدةً عن قبرِ أبي، الذي يرقدُ هناكَ منذُ عام ألف وتسعمائة وستة وسبعين. هي، التي لم ترني منذ هَبّتْ علينا ريح البداوة في السبعينات ولم تسمع صوتي إلاّ بعد «التحرير!» تسألني متى تعود يا بُنَيَّ؟ مَلَلْتُ الانتظارَ، والعمرُ انقضى، كلُ الطيورِ إلى أعشاشها آوَتْ، إلاّ أنتَ؟!

أُختكَ الصغيرة، صارتْ جَدَّةً.. إلى متى تَظَلُ في الغُربة؟

لماذا لا تبحثُ لكَ عن شغلةٍ مثل بقيِّة الخلق وتعود ...؟!

«يدايَ لا تَصلُحانِ إلاّ للكتابة أو القيد»، أَردُ عليها ..

---

[2] موضعٌ في مقبرة وادي السلام بالنَّجف، يُقالُ إن نبيَّي عاد «إرَمَ ذات العماد، التي لم يُخلق مثلهُا في البلاد..» هُوداً وصالحاً يرقدان فيه.

«وبما أنني لا أُحبُّ القيد، فَضّلتُ الكتابةَ، وإنْ كانتْ لا تُسمِنُ ولا تُغني من جوع، كتابةَ ما أريدُ أنا»...

أُمّاه، لكنْ لكي يكتبَ المرءُ ما يَعِنُّ عليه، يجب أن يكونَ - مُستقراً -، ولكي يكونَ مستقراً، يجب أن يكون في بلدٍ مستقرٍّ، وبما أنَّ بلادي غير مستقرة، ولا تنامُ ليلتين مُتتابعتين على الخارطةِ نفسها، فتصحو عاريةً، مُبَلَّلٌ ما تحتها، لأنها سلَّمَت مفتاحَ غرفةِ نومها لـ «العم سام» و«أبناء عمومتنا!» وكل اللَّهَّافين واللصوصِ والقَتَلَةِ والسمسارين من كل القوميات والطوائف والدكاكين... حيثُ الكلُّ يتآمر على الجميع...

الأقوامُ والطوائفُ على الوطن وخارطته،

العالم والجوارُ عليه،

اللاهوتُ على الله،

الكُتّابُ على اللغة،

والمؤرخونَ على الذاكرة،

والمُغنونَ على النغم والسُلَم الموسيقي،

البرلمانُ على الشَّعب،

اليمينُ على اليسار،

واليسارُ على نفسه،

الصحراء على السَّراب،

والأشجارُ على الطيور،

والأرصفة على المارة،

.....

بلادٌ تَستجدي الأمان من اللّه، دونَ وضوء..!

ثُمَّ كيفَ لي أنْ أنامَ مُطمئِناً، بلا غطاءٍ طائفيٍّ، أو قوميٍّ، حزبيَّ أو عشائريَّ.

أنا لا يسترني شيءٌ.... عارٍ إلاّ من إنسانيَّتي...

لا أملكُ في هذا الحضيضِ، عصاً سحريةً، غيرَ حروفي، أمتطي صهوَتَها، بحثاً عن كينونةٍ أُخرى، غيرَ هذا الخراب...

«يُمّه لاتزعلْ، مو هذا الوطن، اللي نِكَبتْ - ثقبتَ - بي راسنه!»

قُلتُ لها «سأشتري بعضاً من شمسه، نخيله، بساتينه، ومائه.. ليسَ لِلَّمْسِ، للنظر فقط!! ثُمَّ يبدو أَنْ لا حقَّ لي في هذا الوطن، لأنني استهلكتُ حصَّتي منه عندما كنتُ طفلاً يزحفُ، فأكلتُ ما يكفي من تُرابه...!!»

ثُمَّ تعودُ تسألني: «شلون عايشين، يُمَّه؟!»

«وضعٌ صحيٌّ لا أُحسدُ عليه، ودخلٌ شهريٌّ لا يَقصمُ الظهرَ فقط..! يحسدنا، ويستكثرهُ علينا ألفريد سمعان![3]، في حين أنّي

---

[3] هو الأمين العام لـ«اتحاد الأدباء والكتاب في العراق»، الذي كتب في الصفحة الأخيرة من جريدة «الصباح» بتاريخ 12 / 8 / 2006 مادَّةً شتمَ فيها الأدباء، الذين يعيشون في الخارج... «ولا يشعرون أساساً بمأساة الوطن، وهم يتجوَّلون في حانات

وكثرةً غيري، مُستعدُونَ لمبادلةِ ما نملكُ! - ولا نُبادلُ قيَمنا غير المادية - بما يملكه من قيَمٍ مادية منقولةٍ وغيرِ منقولةٍ!! فهل يقبَلْ؟!»

تَتَلَعثَمُ أُمّي، فلا تُفلِحُ في اختيار ما تقولُ.. وبعد هُنَيهَةِ صمتٍ، يجيءُ صوتها عبر خطوطِ الهاتفِ: «يُمَّه، إبرينا الذمَّه...!!»

(4)

مرّةً سألتُها، مُتذمِّراً بنَزَقٍ من قلَّةِ ذاتِ اليد، ضَمَّتْ رأسي إلى صدرها، ربَتَتْ على كتفي وقالت بحنوٍّ «لا عليكَ يا بُنَيَّ! فَطَمتُكَ في الظلِّ كيْ أُبعِدَ عنكَ عينَ السوء مرةً، ولتتعلَّمَ مراقبَةَ ما يجري في حَلَبةِ الأضواءِ، فَتَتّقِيَ ما تَعافُه النفسُ... مرة أُخرى!»

(5)

كنتُ يافعاً، لَمْ أبلُغِ العشرينَ بعدُ، عندما نقلونا من «المسلخ» في قصر أنور الجوهر إلى القلعةِ الوسطى بسجن الحلَّة. كان زمناً ازدهرتْ فيه الوشاية والخيانة، وظلَّت تتناسل حتى اليوم... جاؤوا به مكتوفَ اليدين، غطُّوا رأسه بكيسٍ أسود ذي فتحتين للعينين فقط، يجرّونه بسلسلةٍ في عنقه... كان يُشيرُ بأصبعه إلى أحد الموقوفينَ،

أوربا ...إلخ أقول لهؤلاء إنَّ الوطن سوف لن يتسامح مع الذين خذلوه... كذا وأنَّ الحسابَ الأخلاقيَّ والاجتماعيَّ والفكريَّ أيضاً سيظلُ يلاحِقُ كلماتِهم القاتمةَ..»

فيأخذه «الحرس القومي» إلى حيثُ لا تُريدُ له أمه... أفرزوا عدداً منّا بناءاً على إشارةٍ منه. أخيراً أشارَ إلى واحدٍ، سأله أحدُ الجلادين «- ما دليلكَ على هذا؟»

أجابَ بصوتٍ مبحوح وَجِلٍ: «لا أعرفه، سوى أنه دفَعَ قبلَ عامٍ شاياً كنتُ شربته في المقهى.. كيفَ يدفع ثمنَ شايي إن لمْ يكن يعرِفُ أنني كادرٌ حزبيٌ..!؟ إذاً هو واحدٌ منهم!»

في اليوم التالي كان موعدُ زيارةِ ذوي السُجناء والموقوفين. جاءَ أبي بعمامته وافترشَ عباءته على الأرض بانتظار مجيئي. كنتُ ساعتها مُشَوّهَ الخلقةِ جراء التعذيب. عندما صرتُ أمامه سلّمتُ عليه «اللّه يساعدكْ». لم يتعرَّف عليَّ. سألني: «بويه! أكو واحد إسمه يحيى، تعرفه؟ بلكي تصيحلي اياه؟» خنقتني العَبرةُ. ما زلتُ حتى اليوم أشعرُ بطعمها المر. قلتُ له أنا هو! لمْ يُصدِّق، حرّكَ نظارته ينظفها، ليتأكّدَ من هيئتي... صَمتَ. فانزلَقتْ من عينه الكليلةِ دمعةٌ، توارت بين شيبِ لحيته.. قامَ ونفض عباءتَه. قالَ: «آني رايح، بعد ما أجيك! هذا الدرب انته اللي ردّتْه! بس أوصيكْ لا تيَتِّمْ عايلة، ولا تقطع خُبزة طفل... وإذا متْ، عندك تلَث اخوه يكبرون وياخذون بثارَكْ، وإذا ما إخذوا بثارك، لا خيرٍ بيهم!!»

.....

ألمٌ يعتصرُ قلبي وصدري، كذلكَ، الذي يَسبِقُ الذبحةِ الصدريةِ.. أنكمِشُ تحتَ جِلدي، أزدردُ خَجَلي، لأنّني لمْ أفلح في ردِّ عُشرِ معشار

مما قدمته أُمي وأبي لي... فأروحُ ألعَقُ ما يُشبِه الصمغَ فِي حَلقي، كأنَّ قِطَّةً أكَلَتْ لساني... كيفَ سأعتذر لأبي، الذي ماتَ في الكاظمية، دون أن يراني لأني كنتُ مُنشغلاً عنه بـ «القضيّة!؟؟»

كيفَ وبأيةِ لغةٍ أعتذرُ لأُمي عن الغياب؟!

هِيَ، التي كانت تسفَحُ خلفي طاسةَ ماء كلما سافرتُ وتدعو لي بسلامة العودة؟!

كيفَ أعتذِرُ عمّا اقترفتُ بحقِّها من ذنوب..؟!

.....

.....

اللهمَّ أُشهِدُكَ أنّي وفَّيتُ وصيَّةَ أبي وأُمي، فلم أتسبّبْ في يُتمِ عائلةٍ أو قطعِ خبزة من فمِ طفلٍ، ونأيتُ بنفسي عن حلَبَةِ الأضواء، التي يتدافع إليها، كثيرون بالمناكب والأعقاب...

شُبّاكْ

أيتها الآلهةُ اللّعينةُ، ماذا فعلنا..
هلْ نستحقُ كُلَّ هذه اللعنات!؟
أولئكَ الجلادينَ الأوغاد، وهذه المسوخ؟!
.....
أخطأنا؟
نعم! غير مرة..
لكن ليسَ هناكَ تَناسُبٌ بينَ ما أخطأنا به وبين
«القَصاص» الذي أَنزَلتِه علينا!
فظاظةٌ وساديةٌ لا يُدانيها إلاّ «يَهْوَه»!
.....
أَلأنّنَا تجرّأنا على الحُلُمِ - الوهم؟!
جلاّدونا مُتَفَرِّدون! لا يشبهونَ إلاّ أنفُسَهمْ!!
في جنوبِ إفريقيا، وبعد اندحارِ النظام العنصري،
مجرمون عنصريُّون، أعلنوا التوبةَ، اعترفوا بجرائمهم..
بعضهم راحَ يغسِلُ أقدام ضحاياه، كَفّارةً عن ذنوبه..
أما عندنا، فصمتُ القبور!

حتى مثقفوهم متواطئون على الصمتِ معهم!

دَسّوا رؤوسَهم بين المناكِبِ، ورفَعوا ياقاتِ معاطفِهم، كأنَّ شيئاً لم يَكُنْ! ولم يكونوا شهوداً، في أقَلِّ تقدير!!

كيفَ يُرادُ للمناخَ أَنْ يتعافى إذاً؟!

.....

نعرِفُ أَنَّ في جنوب أفريقيا، ثمّةَ حُكماءَ كمانديلاّ والقس ديزموند توتو وسواهما، ممّنْ لم يمتطوا «كديشَ!» الثأر، مما وفَّرَ المناخَ المناسب لبدايةٍ إنسانيَّةٍ مُتَحَضِّرَة.

لو أَنَّ البديلَ عندنا كان حضارياً وإنسانياً لما كان سابقاً، لأُرغِمَ جلادونا على التوبةِ وطلبِ الغفران..

لكن، يا لنَحسِنا وسوء طالِعنا، جاء البديلُ مِسخاً، أسهم فيه المحتل وكل مَنْ وضعَ يده بيده

.....

النص التالي ليس دعوةً لإذكاءِ روح الثأر والانتقام وسواهما من الغرائز الدونية.... وفيما يتعلّق بي، أتنازلُ علانيةً عن حقي الشخصي، ويبقى الحق العام!

فذاكرتنا ليست مثقوبةً أو ملساءَ، كالمرآة، لا يلتصِقُ بها سوى قَذَى الذباب!!

فالصفحُ والتسامُحُ لا يعنيان النسيان ولا محو الذاكرة!

فلا القطرةُ تختزِلُ ذاكرَةَ الماء، ولا الخطوةُ ذاكرةَ المسير!!

(1)

... مثلُ المرايا، تصدأُ من تكرارِ ذاتِ الوجوه،

... مثلُ الأنصارِ يَعافونَ العدَسَ و«الاستخبارات»[1]

... مثلُ علاقةٍ تنتهي «مدةُ صلاحيتها» فيوصدُ الماضي أبوابه عليها،

هو فمُ الجُلمود،

صرخةُ الصمتِ،

استفهامٌ يَفغَرُ طَلَباً لجوابٍ

وهو كُوَّةٌ في العمى..

عادةً هو منصَّةٌ نُطِلُ عبرَها نحوَ الخارج أو الداخل (داخلنا)، مسلوبَ الإرادةِ، يقعُ عليه وعَبرَه فعلُ النظرِ،... يُمرِّرُ الهواء والروائحَ

---

[1] **خلالَ الحصار، الذي فَرَضه «حُرّاسُ البوابةِ الشرقيةِ للأمة!» على الأنصار، أُفقرَتْ «مائدتُهم» الزهيدة أساساً، إلى العدس والخبز والشاي.. وحيثما حلَّوا في قرية، واجهتهم وجبةٌ من الخبزِ ونوعٍ من بقايا الجبنِ ممزوجةً بالأعشاب، هو عُدَّةُ فقراء الأرياف للشتاء.. ولأنَّ الأنصارَ الشيوعيينَ لم يكونوا «مُتَطلّبينَ» كغيرهم!! وإنْ كانوا يحلمونَ بأكلةِ دسمةٍ شهية، أطلقوا تسمية مَرِحَةً «استخبارات» على تلكَ الوجبة، لأنها كانت «مبثوثةً» في كل القُرى مثل استخبارات النظام. ي.ع.**

والعشّاق السرّيينَ، والمنشورات السرِّيَّة، وكثيراً من المحرَّمات، وحتى اللصوصَ، دونَ أنْ يقوى على الردِّ عن نفسه إزاءَ أيِّ فعلٍ، لأنه منفَعِلٌ، لا يَقوَى على الفعل، مُنزرِعٌ هناك فقط... فعيونُهُ صاغيةٌ ' حتى للغة الجسَد . هو نافذةٌ للحُلُم وللعشقِ، والتَلَصُّص والسؤال...

من أينَ لي برابونسلْ[2]، تُطلُ من شباكها، تُبَدِّدُ سرابَ «الآن» ووحشتَه؟ فتُعيدُ المُخَبَّأ في أنفاقِ الذكرى إلى بُرجِ ما «كان».. لَهاوي الذكريات، لرذاذِ الأحلامِ و«فُتاتِ النذور»؟!

.....

كُنّا دهراً على أُهبةِ الشوقِ للرحيلِ إلى ما «سيكونْ»، لكنه، يا لخيبتنا، أدارَ لنا القَفَا، وآثرَ أن نتوهَ في درابين «الآن»، فَنَتَفَرَّقَ أيدي سبأ!!

.. تُرى هلْ كانَ الحلمُ على مقاسِ أمانينا؟

أمْ أننا سَفحنا العمرَ على أضغاثِ «رغبةٍ» لم تَحِنْ ساعتُها، تأريُخها، فطواها الدهرُ وأعادها لِما «كان» سيرتَها الأُولى، لأنَّ أوانَ «الآن» لم يكن قد نَضَجَ؟؟!!

.....

لكنَّنا لن نَتوبَ!

إزميلُنا، أظافِرُنا، بها نحفُرُ الوجَعَ في صخورِ الذاكرة،

---

[2] **الأخَوَان غريم مشهوران في الثقافة الأوربية، كونهما كتبا عدداً وفيراً من الحكايات وقصص الأطفال، ومنها حكاية رابونسل، فتاةٌ تخطفها ساحرةٌ، تسجُنُها في برجٍ بلا بابٍ.. له نافذةٌ في الأعلى، لا سبيلَ للوُلوجِ إلى داخله، إلاّ أنْ تُدَلِيَ السجينة رابونسل بضفيرتها الطويلة، فيرتقيَ حبيبُها إليها خلسَةً! ي.ع.**

لا نُسَيِّرُه على ظهور الماء الجاري،

ننقُشُهُ على جذوعِ الصندل،

لا نجرَحُ به وجهَ الرملِ، تَذريهِ الرياح،

لا نرضى الخنوعَ، ولا نثورُ على زهرة رُمّان،

ولكي لا ننسى، كالذئبِ الجريح، نَلعَقُ الذكرياتِ من جروح الأمس..

فقوانين حماية البيئة والضواري لا تَشملُنا ..!!

لأنَّ دَمَنا مُباحٌ، حتى في الأشهُرِ الحُرمِ، للأخوةِ، للأقاربِ – العقارب، للأعارِبِ والأعاجم..

.....

.. إيه! يا غداً مراوِغاً خلفَ متاريسِ الضباب، هبْ لنا كفافَ الأيامِ التاليةِ، واكفنا شَرَّ المتفجِّراتِ والخناجرِ المُطهَّرَةِ بالوضوءِ وسورةِ الفاتحة، وسنقبَلُ أنْ نَحُجَّ لخرائبِ ما «كانْ»، فارغةً، إلاّ من صدىً، نُراوِحُ في عُسر خاتمتنا ...

فما «الآنَ» غيرُ جثةٍ، كلّما نَفَخنا في رماده، لا وميضَ، ولا ما يُشيرُ لبقايا جَمرٍ...،

«أيتُها العيسُ، قدْ خَلَتِ المتاريس!!»

ولكنْ... هلْ سَنَظَلُ نتبعُ الحُلُمَ، كنجومِ المجوس؟.. وإلى أيٍّ هاويةٍ؟!

نُريدُ أنْ نتأكَّدَ!!

لنْ نسيرَ بعدَ اليومِ، دونَ «بوصلةٍ» أو «زُوّادةِ طريق» كما «كانْ»!

لا نزالُ، حتى الساعةَ، نَلعَقُ نُدوبَ خطايا ما «كانَ»...

فـ«قنديلُ» هوانا كَلَّ بَصَرُهُ،

قشَّتُنا ابتَلَّتْ،

وبِتْنَا على مَبعُدَة «قابَ حُلُمين أو أنأى!»

نحنُ نَكراتُ البياناتِ ونَشراتِ الأخبارِ.. نحنُ المجهولونَ المُشَفَّرونَ، نخُطُّ حُروفَنا، مُرتَعشينَ، بعيداً عن «تُفّاحة نيوتن»، شَدٌّ يُوَتِّرُ المسافةَ بين «آننا» وما نشتهي أنْ «نكونْ»!

ومع ذلك!

لا نَستكينُ لأنّنا لسنا «ماءَ سبيلٍ»، يشربه مَن شاءَ،

أو قشَّةً تُذريها الرياح..

نَكبُتُ غَيظَنا أمام المرآة، مثلما يكبتُ الحاكمُ «رعيَّته»!

وفي مباءاتِ الدَّناءَةِ والتردّي، نرزمُ حقائبَ الذكرى، نحو وادي ما «كانْ»، لأنَّ ما «سيكون» صبورٌ، مثل حمارٍ، يحتملُ الانتظـــار!!

كي نعبُرَ أرضَ المجازِ لأرضٍ تجوز!!

حتى يغار سيزيف من تَحمُّلنا، وأبو الهولِ من ثباتنا، والأعاصيرُ من صمودنا ...

إذاً.. «منْ كُلٍّ، قَدْرَ حُلُمه،... ولكُلٍّ ما استطاعَ حملَهُ من حُلُمٍ!»

بلا تَكَهُّناتِ يانصيبِ التأويل، «يومَ تبيَضُّ وجوهٌ، وتَسوَدُّ وجوه»!!

❖ ❖ ❖

(2)

شُبّاكان، بعينهما، لا يبرحانكَ... «يزورانكَ» في الغُربة، دون دعوة.

شريكُ الأرَقِ وسميرُ السُهَاد، شُبّاكُ غرفتكمْ في السطح، وشباكُ زنزانةٍ بسرداب «قصر النهاية»...

.....

تصحُو مرةً، تبكي فقدانَ حُلُمٍ، مفزوعاً من تخيُلاتٍ معيبة وألفاظٍ نابية، تضيقُ بها أذرعاً، فتروحُ تَتَصَيَّدُ فرصةً للخلاص منها.. وتُعيدُ ترتيبَ زِحام الذاكرة..

كيفَ تُبدِّدُها؟! أبهجاء الطقس..؟

أم بشتمِ القوافي وأصحاب «المُعلَّقات!»؟!

أم بسَفحِ «دمِ» الكلماتِ على بياضِ الورَقِ، لتُضيءَ سوادَ الذكرى في ذُبالةِ كأس العمر؟!

.....

سترى كيفَ سينقلونَكَ من «البابِ الشرقيِّ»، بعد أن تَتَلقّى ضربةً بأخمصِ مُسدَّس في موضع مُحدَّدٍ، خلفَ الرأسِ، لكنكَ ستَعرفُ من اتجاه حركة السيارة، أنهم ماضون بكَ نحو «قصر النهاية»...

مكتوفاً، إلى الخلف، معصوبَ العينين، ستَتَلقَّى ركلةً قويَّةً، تُصاحبُها دفعةٌ في الظهرِ... ستتَدحرَجُ على سُلَّمٍ، تتكوَّمُ في آخره... تُحِسُ بسائلٍ دافىءٍ، يُلصِقُ القميص على الجلد، لا يستعصي على

التخمين والتكَهُّن! فيَقدَحُ في رأسكَ تفسيرٌ لسؤالٍ كُنتَ تخجلُ، وأنتَ صغيرٌ، من طرحه على أبيكَ، تفادياً لجوابٍ ساخر. كانَ عندما يرفَعُ يديه للدعاءِ جلوساً، بعد الانتهاء من الصلاة، يختم دُعاءَهُ مُتضَرِّعاً «اللهُمَّ، قِنَا سَقطَةَ الضَرير!»

الآنَ، فقط، ستفهمُ مغزى دُعاء الوالد! إذ لا تَدري ما الذي حلَّ بكَ، ما الذي انكسرَ منكَ، ومن أينَ يسيلُ دمكَ...

سيسحلونَكَ يمينَ السُلَّم حتى آخر الممر، يرمونكَ في مكانٍ، يلسَعُكَ بردُ أرضيَّتِه الخرسانيَّة... يتناهى لسمعكَ حديثٌ عن «حفلة»!

.....

دون عناء تفكير، أوَّلُ ما يخطرُ على بالكَ ذلك الدرس، الذي تعلَّمتَه بسجن الحِلَّة من محسن - مسؤول تنظيم الصَّاغة بسوق الأنباريين في الكاظمية - كان يقول:

«أهمُ شيءٍ أن تصمدَ خلال الدقائقِ الخمسِ الأولى... إذا تجاوزتَ هذه العَتَبَة، بعدها لن تشعرَ بألم شديد، لأن المسوخ سيبذلون كلَّ ما يستطيعون للحصولِ على ما يريدون خلال تلكَ الفترة.. اصمُدْ، وسترى أن جسمَكَ سيتورّمُ ويُكوِّن ما يشبه المَصدّاتِ الواقية، فلا تعودُ تشعُرُ بشدَّة الألم...!!»

... لنْ يطولَ الإنتظار، ستبدأ «الحفلة» بسبابٍ وبذاءاتٍ تخجَلُ منها المعاجمُ والقواميس، يُصاحِبُها ضربٌ أعمى بعصاً غليظة، لَكَماتٌ

وركلٌ لا على التعيين.. تَتَرنَّحُ وتسقط على الأرضية الإسمنت، يُوقفونكَ، ليعيدوا الكَرّة مَرَّاتٍ، وأنتَ تتحاملُ على نفسكَ، وتَعَضُ شفتيكَ.. فجأة، تسمعُ صوتاً ليس غليظاً، لكنه كان واثقاً، آمراً: «فُكّوا عيونه! أريده يشوفني هذا الـ...!»

يُزيحون العَصابةَ عن عينيكَ. برمشةِ عينٍ، أوّل ما يقعُ عليه بصَرُكَ، شبّاكٌ صغير بمستوى الأرض، يُذكِّرُك أنَّكَ في مكانٍ تحتَ مستوى سطحِ الأرض... لا تَدري حتى الآنَ لماذا أوحى لكَ ذاكَ الشباك، لحظتَها، بوجهٍ عَبوس، رغمَ أنَّ حمامةً كانت تبحثُ في الحشيش عما تأكُلُهُ عندَ الشُبّاك...

ظلٌ يذوبُ عند تُخومِ الغَسَقِ، في لهيبِ المغيب..
قَدَمان كبيرتان نسبياً بحذائين أسوَدين،
لا ترى ما فوقهما، أكرشٌ، أم بطنٌ ضامر؟
جسمٌ مُتَرهِّلٌ، أم رياضيٌ ملمومٌ على بعضه...؟

ولأنكَ أدمنتَ، صغيراً، حكاياتِ جدَّتكَ، التي استقرَّت في صندوق الذاكرة، ستروح تنفض غبارَ المادية والعلمية عنها.. فتتأمَّل، مُسائلاً نفسَكَ، «متى تظهرُ أشباحُ وأرواحُ العائلة الملكيّة..؟؟[3]»

كانت الجدةُ واثقة مما تَقصُ عليكم: «المكان المُغتصَبُ، لا

---

[3] «**قصر الرحاب» كان قصر العائلة الملكية، حتى ثورة 14 تموز (يوليو)** 1958، **إذ جرى تحويله إلى مسلخ بشري مرعب،، لا سيما، خلال عهد البعث الثاني عام** 1968، ي. ع.

تُفارقه أرواحُ أصحابه.. تظلُ تطوفُ في الليل، تُردِّدُ عويلاً يشبه صفيرَ الريح في ليالي الشتاء!».

فجأةً تَختطفُكَ يدٌ غليظةٌ، تُطبِقُ على رقبتِكَ من الخلف، وأخرى تشُدُّكَ من الحزام، فتقذِفُكَ بقوَّةٍ إلى الحائط... تتكَوَّمُ كأرنبٍ خائف.

لن تدري ما اسمُ ذلكّ السائلَ، الذي يتقطَّرُ من الحَنَك، مزيجٌ من الدمعِ والمُخاطِ والدم والعَرَق...

ستُحسُ أنَّ «أنهاراً» من العرقِ تُصَبُ في فروةِ رأسِكَ وراحتْ تفيض لتغمرَ حاجبيكَ فتفلتَ قَطْراتٌ منه إلى العين وتُحدثَ حُرقةً، تُضافُ لآلامٍ بشعة... أنفاسُكَ تهربُ مُسرِعةً، مثل سجينٍ هرَبَ إلى الحرية.. وما بين الضلوع ينُطُ كظبيٍ مذعور....

دعكَ من هذا كلِّه، وركِّزْ على ما أنتَ فيه، كي تجتازَ «الامتحانَ» بجدارةِ إنسانٍ عاليَ الجبين!

تَتَطَلّعُ إليه.. كائنٌ ضخمٌ، لا يَقِلُ طوله عن مترين، مفتولُ العضلات، عريضُ المنكَبَين... ببَشَرةٍ حنطيّة. ثمةَ شيء في هيئته يثيرُ الضحكَ والسخرية. رأسه حليقٌ مُستَدِقٌ قليلاً، رقبته طويلةٌ بعرض رأسه، مما يُكسبه شكلاً أشبه بالقضيب! أنفُهُ مستقيم، ينتهي عندَ جبهةٍ كثيرةِ الأخاديد، وحاجبينِ كَثَّينِ أشبهَ بمظلَّةٍ ماركيزةٍ لعينيه...!

يصيحُ بكَ ابنُ الخنى ويأمُرُكَ بالوقوف، وعندما تهمُّ بذلك، يقفزُ في الهواء فيوجِّهُ لكَ ركلَةً في الوجه.. تُحسُ أنَّ ثمةَ شيئاً صلباً تكَوَّمَ في

فمكَ.. يَتَلَّمُ الكلام على لسانك، تقعُ في الحال ويرتطمُ رأسكَ بالحائط، «فيهرُبُ» منكَ وَعيُكَ....!!

.....

بمنتهى الهدوء والحَذَر، تنْسَلّ خارجَكَ.. تقفُ أمام جسمكَ مثلَ مُصَورٍ شمسيٍّ، خلفَ كاميرته – الصندوق،، المستقرَّة على ثلاثة أرجُلٍ، لا تملكُ مقاومَة إغراء وسحر أنْ تدُسَّ رأسَكَ في الجُراب الأسود، لترى ما بداخله، مثل «صندوق العجائب»[4] أيام زمان..

عندما تَدلِفُ برأسكَ في ظلام الجُراب، ترى ما يُشبه فزّاعة الطيور... كيانٌ يشبه دُمية قديمة لا تَقوى على الوقوف، رأسٌ مائلٌ يتكئ على ذراعه الأيسر.. كَدمةٌ زرقاءَ عندَ نهايةِ الحاجبِ الأيمن مثل بيض العصافير.. أنفٌ منتفخٌ، وحيث موضعُ الفم، لا ترى غير سائلٍ داكنٍ وشفاهٍ مُتورِّمة، كأنَّ سرباً من النحل قد تناوَبَ على «تقبيلها»! قميصٌ وبنطلونٌ رماديٌّ، انهزَعَ في غير مكان.. هَلَعٌ يُصيبكَ وأنتَ تُشاهدُ

---

[4] في الخمسينيات من القرن المنصرم، وقبل انتشار البث التلفزيوني، كان ما يُسمّى بـ«صندوق العجائب» يستهوينا نحنُ الصغار، يدفع كل طفل، فلسين، يجلس ثلاثة في كل «دورة» أمام «عيون الصندوق». كنَّا نتفرّجُ ببهجةٍ غامرة على صور «أبو زيد الهلالي» أو «الزير سالم» ونلتهمُ ما يحكيه صاحب الصندوق من قصص حَفظها عن ظهر قلب، وهو يدير بإحدى يديه أسطوانة الصور.. كنا نحفظ القصة والصور ونروحُ نتباهى على أقراننا، ممن لم يستطع دفع الفلسين، فتحكي جزءاً منها، وعندما يبلغُ إنصاتُ الآخرين أشدّه، نُمسكُ عن القص حتى ننتزعُ قطعة حلوى أو أي شيءٍ.. بعدها نواصل القصة! ي. ع.

جسمَكَ «الفزّاعة» يرتجفُ بحركاتٍ مُتقطّعةٍ، كجثةِ خروفِ الأضاحي بعدَ ذبحه...

مذعوراً، ستنزعُ الجُرابَ الأسوَدَ عنكَ، وعلى أطرافِ الأصابع تعودُ مُتسلِّلاً، مثل لصٍ إلى داخلك، مُحاذراً أنْ تَمَسَّ جسمكَ، لئلا تُثيرَ مواضع الوجع فتصرخ!

.....

سترى نفسكَ على السُلَّم المُظلمِ بداركم، وأنتَ تُحاولُ اختزالَ الدرجات بالقفز على اثنتين حتى تصيرَ فوق السطحِ وتسارع بدخولِ الغرفة إيَّاها ... مُستقرِّكم الليلي، ثلاثةُ أُخوةٍ، وأختٌ، أنتَ أكبَرُهم... كانت الأُختُ تنامُ في سريرٍ من جريدِ النخلِ، وأنتم الثلاثةَ، تنحشرونَ في سريرٍ مُشَوّهِ الحجم، أعرضَ من سريرٍ لشخص واحد، وأقلّ من عرض سريرٍ لشخصين..

في ليالي الشتاء كنتم تلتحفونَ «شَفّاً»[5] وتتزوّدونَ دفئاً بما تَبُثُّه أجسادكم الصغيرة من حرارة، يختزنها الشَفّ...

لم يكُنْ بابُ الغرفة مُحكمَ الإغلاق، لا يُسَرِّبُ الهواءَ الباردَ والغُبارَ فحسب، إنما القِطَطَ أيضاً.. ستتذكّرُ كيف صحوتم، مذعورينَ، ذات ليلةٍ شتوية، على استغاثة قطةٍ، حَمَلَتْ جراءها إلى غرفتكم، بحثاً عن دفءٍ لها ولصغارها. يومها «ترجمتم» مُواءها:

---

[5] غطاءٌ صوفي، غزلَتْ خيوطَه وحاكتْه وصبغتْه يدوياً جدَّتي لأبي. ي.ع.

«يالله! كافي نوم! إجَه سِرانه، آني وجهالي!»

لا تدري حتى الآن لماذا ارتسَمَتْ صورةُ شُبّاكِ غرفتكم بمخيِّلتكَ الصغيرة، بوجه ذلكَ الضرير، يجوبُ الحاراتِ والسوقَ بعصاه وطاسته الفافون (الألمنيوم) يُردِّدُ لازمتَه بعربيةٍ صافيةٍ في مخارِجِ حروفها - دون تلحين!- «عطايا قليله، تدفعُ بلايا كثيرة»!!

أيكونُ مصدر التشبيه عينيه المخسوفتين؟!

ربما..

فقد كان شبَّاكُ غرفتكم الصغيرةِ، مستطيلاً، ينتصبُ طولياً في الجدار، بجانب الباب. له أربعُ زجاجاتٍ، اثنتان مربَّعتان في الأعلى.. واثنتان مستطيلتَانِ في الأسفل.. الزجاجتان العلويَّتان مكسورتان، كعينَي ذلك الضرير.. لم يكترث بهما أحدٌ، فكانتا معبراً للحَمَامِ والسنونو، الذي كان يُقيمُ له أعشاشاً في الفراغات بين جذوع النخلِ بسقف الغرفة... في الشتاء كنتم تَسُدّون فتْحات الشبّاكِ بقطَعٍ من المُقَوّى وتشدّونَ بوابتَي الشبَّاك بحبلٍ لإحكامِ سَداده... لكنَّ الرياحَ والأمطار تظلُّ تُصليه بسياطها، حتى يهتريء الكارتون المُقوّى فيتساقطَ مثل مُقاتِلٍ هَدّته المقاومة والإعياء...

ويروحُ الشُبّاكُ يُصدرُ صريراً كأنه يستجيرُ لأنه لم يعد بمُستَطَاعِه أن يمنع عنكم رذاذَ المطر، الذي تحمله الريح الغربية (الغربي)...

.....

تسمعُ ناياً حزيناً .. يأنُ حنيناً في الليالي لأصله القصب. كُنتَ تُجرِّبُ تقليده، لكن الأهلَ زَجروكَ لأنه «يُورثُ السلَّ»! فرحتَ تُجرِّبُ ذلكَ خلسَةً.. تُخفي الناي تحتَ الدشداشة، لتتعرّفَ على سحره في بستانٍ قريب..

.....

تصحو وقد «أخذتَ» دوشاً بارداً من سطلِ ماءٍ سكبوه عليك، ولمْ يكن في نيَّتهم إعطاؤُكَ استراحةً، بل المواصلة بشكلٍ مكثَّف، حتى تنهار بأسرعِ وقتٍ ممكن...

لكن تفلتُ من «المارد» عبارة:

«علِّكوه.. اليوم راح أخلِّي بابان وأجداد بابان[6] يبجون عليه!»

تَلتقطُها فوراً.. إذاً هم وراءَ شخصٍ آخرَ يطلبونه، ولستَ أنتَ المطلوب،...

لقد هانت الأمور!!

لكنَّ جِرابَ مثانتكَ اللعين امتلأ حتى الآخر، وأي حركة، ستَدلُقُه..

---

[6] كان هناك شخصٌ إسمه يحيى بابان (غير الصديق القاص يحيى بابان - جيان -، الذي سكنتُ قريباً منه في كونيَفوفا ببراغ لعامين متتابعين) تخرَّجَ في كليةِ الاقتصاد والعلوم السياسيَّة بجامعة بغداد في السنة الدراسية نفسها 69/68، من نشطاء جماعة القيادة المركزية، كانت لي علاقة وديَّةٌ معه، إذ لم يكن استفزازياً كالبعض الآخر. ي.ع.

فماذا أنتَ فاعلٌ!

إنهمْ يرفضون السماحَ لكَ بالذهاب إلى التواليتْ، إمعاناً في الإذلال، وانتظاراً للحظة ضَعفٍ قد تَبدُرُ منكَ.. لكنكَ تُقرّرُ مع نفسكَ «أبولُ عليكم، أبناءَ مَنْ لمْ يَحفَظنَ فُروجَهُنَّ، سأدلُقُ قربة بَوْلي في وجوهكم، ولن أسفَحَ قطرةَ الجبين.. إياها!

سيُعلّقونَكَ، رغمَ ما تُبديه من مقاومةٍ غيرِ مؤثّرةٍ وتمَنُّعٍ باهتٍ، «الإرادة تُريدُ، لكن اللحمَ لا يَقوى!» على ما يقولُ الإنجيل..

تَتَدلّى من حَلَقَةٍ غليظةٍ في الحائط، مشدودَ اليدينِ مثل الخراف المُعَلَّقَة في دُكّان سيِّد علي القصَّاب.... وفيما أنتَ تُركِّزُ على تجميعِ قواكَ المُبعثرة، يطيرُ صوابُ الجلادين، فينهالونَ عليكَ بسياطٍ من صنعِ خيالهم الموبوء، صوندات محشوَّةٌ بسلكٍ معدنيٍ غليظ... في البداية تئنُ، بيدَ أنَّ الأنينَ لا يتناسب مع جحيم آلامكَ، تَصرُخُ حتى ينبَحَّ صوتُكَ وتتجرَّحَ حنجرتُكَ، دون صَدىً يرتدُ إليكَ.. سوى عُواءِ ذئابٍ ونباح كلابٍ، تنهشكَ، وقد غادرتكَ كلُ الآلهة وتبرأتْ منكَ!

يُمعنونَ في ساديَّتهم المَرَضيَّة، تسألُهم ماذا تُريدون؟ يأتيكَ الجوابُ زَخّةً من الصوندات المتواترة ويقولونَ «تقيأ كُلَّ ما في دماغكَ الجايف، عَمَّن تعرفه وعمَّن لا تعرفه.. المهم فُكْ حلقَكْ، غَرِّدْ!»

تَروحُ تُحَشِّدُ نفسكَ لتملأ رأتَكَ بالهواء، حتى لو كان فاسداً، وتُرسلُ بصقةً صمغيّةً بإتجاههم، لا تعرفُ إنْ كانت «أصابت» واحداً من

الثلاثة، لكنَّ ردَّ الفعل كان فورياً بضربةٍ من عمودٍ خشبيٍّ، يَشُجُّ رأسكَ فتسبحُ بـ«دوشٍ» من دمكَ أنت...

آه، يا رفيق محسن، ثمَّ آه.. فآآآآه!

أين أنتَ الآنَ، ودقائقكَ الخمس؟!

دهرٌ انقضى، وما انتهتْ دقائُقكَ!!

تَعالَ، صُبَّ تيزابكَ على صوانِ هذا الجحيم..

علَّه يصيرُ دقائقَ رخوَةً..!!

.....

تُحسُّ أنَّ عضلاتكَ ارتختْ ودَخلَتْ في «الإضراب»، فلم تَعُدْ قادرةً على الإبقاء على الشَدِّ المطلوب، كي لا تنخلِعَ يداكَ من الكتفين، فباتَ ثقلُ جسمكَ مرتكزاً على ما تتحَمَّلُه كَفّاكَ، وسيغورُ الحبلُ في اللحمِ الحيِّ..!

سيترنَّحُ رأسُكَ، الذي أصبحتَ تُحسُّ بثقَلِه غيرِ المعهود، وتَشعُرُ بالغثيان فتستفرِغُ بطناً خاويةً، إلاّ من عُصارةٍ صفراء... وستشعرُ ببردٍ مفاجئٍ، يخُضّكَ كأنكَ في زمهرير.... لمْ يَعُدْ جسمكَ يعملُ بشكلٍ عاديٍّ...

واتَت «الفرصةُ»، على ما يبدو، كلَّ جهازٍ فيه ليُحَقِّقَ «فدراليته!»

عضلاتُ الصدرِ والفَخذينِ ترتجفُ، بل تختضُّ كسعفةٍ في الريح، «صنبورُ» الأنف لا يتوقف! يداكَ وقدماكَ تنضحان، كما لم يسبق لك، عَرَقاً، ونتيجةً لاحتقان المثانةِ، أيضاً، سيحدُثُ لديكَ انتصابٌ لا

إراديٌ.. فَيُجَنُّ جلادوكَ ويهجمونَ عليكَ، بكلِّ «الشهامة القوميّة!»... أحدهم[7] تجحظُ عيناه وترتعشُ يده، يُباعدُ بين رجليه، يُقَوِّسُ قامتَه قليلاً إلى أمام، ويُفردُ ذراعيه، مثلَ مُصارعٍ مُتأهبٍ، سيركِّزُ على كعبيكَ بخشبةٍ سميكة... تُحسُ بطوفانِ جَمرٍ يجتاحُكَ صعوداً نحو الأعلى... سيَسودُ المنظرُ في عينيكَ.. وتَتَعَطَّلُ بقيّةُ الحواس، إلاّ شيئاً من السمع..

سيّانَ إنْ غادرَكَ الوعيُ أو غادرته!!

تندَلِقُ القربَةُ إياها ... مثل مطرٍ تَحَدّرَ من مزرابٍ شوقاً لُملاقاةِ الأرض، لا لكونه مطروداً من السماء!!

.....

... كنتَ تجلسُ في السرير مُقَرفِصاً، منكمشاً على نفسكَ، رأسُكَ بينَ رُكبتيكَ، ظهرُك إلى الحائط، لا تَملكُ غيرَ أنْ تختضَّ خوفاً وبرداً.. تُجاهِدُ في السيطرةِ على اصطكاكِ أسنانك، كي لا يفيقَ الباقونَ، ويُعاينوا خوفَكَ، أنتَ أكبرُهمْ وعلى عاتقِكَ تقعُ مسؤولية توفير الأمان لهم، بَدَلَ الوالدين... لأنكمْ بعيدونَ، في غرفة السطح..!!

لكن مَنْ سيهدِّئُ من روعكَ ويمتصُ خوفكَ أنتَ..؟!

إسرافيل المَلاك، عندما يسوقُ الغَيمَ بسَوطه، فيخلُقُ الرعدَ، تَبرُقُ

---

[7] هو مثنّى الرَّاوي، كان نقيباً في المخابرات، أُعدمَ في نفس العام 1969 مع آخرين، بتُهمة «العمل والتجسُّس لصالح العدو»! وعُلِّقَتْ جثامينُهم في ساحة التَّحرير ببغداد. كانتْ عمليةً بشعةً استهدفتْ ترويع الشارعِ العراقي، وتدجينَه تحضيراً لما سيأتي! وهو ما حصَلَ لاحقاً.. ي.ع.

«عيونُ» الشُبّاك، تَتَكَوَّمُ أنتَ على نفسكَ.. تَعَضُ على نواجذكَ، تَتَّقي نظراتِه بكفّيكَ على الوجه... تَروحُ بعد فترةٍ تُباعِدُ بينَ أصابعكَ وتختَلِسُ النظرَ إليه، لتتأكَّدَ فيما إذا كانَ لا يزالَ يُحَدِّقُ فيكَ، ويُصدِرُ الصرير ذاته، يقشَعِرُّ له جِلدُكَ، كما تفعلُ حبّات الرملِ وهي «تَجِزُّ» تحتَ الأسنانُ...

غريبُ الأطوارِ هو شُبّاكُ غُرفتكم... لا يُطيقُ الوحشةَ، يحتاجُ مَنْ يُسامِرهُ، فكُنتَ أنت ضحيَّتَه في ليالي الشتاء..

المحتوى

بمنزلة المقدمة 9
بُشراكَ حيّاً 11
صلاة 31
عفريتٌ من جِنِّ سليمان 45
حَنين 53
بغداد 59
مَن نحنُ؟! 65
أهيَ خطيئتي؟ 69
وطنٌ يُضيره العتاب، لا الموت 77
كي لا تهجوكَ أُمُّك 83
سلاماً أيها الأرق 89
من دون عنوان 97
ظلٌ لجوج 99
قناديلُ «بشت آشان» 107
له البهاءُ كلُّه 111
رأيتُ البلّور 115
تنويعاتٌ تشبه الهذيان 125
حلم منتصف ليلةٍ شتويَّةٍ 129
هاجَرْ 133
شمعةُ أُمّي، دمعةُ أَبي 139
شُبّاك 149

صدر عن دار كنعان من 2000 - 2011

م	اسم الكتاب	المؤلف
1	شعرية التمرد	جان جنيه
2	قضايا وشهادات / سعد الله ونوس	مجموعة باحثين
3	السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة 1 / 4	خالد آغة القلعة
4	ياءٌ.. وعد على شفة مغلقة	إسماعيل الرفاعي
5	من قريب من بعيد	كلود ليفي شتراوس
6	اعترافات عربي طيب	يورام كانيوك
7	شرك الدم	إعداد مصطفى الولي
8	قصيدة هيروشيما	وفيق خنسة
9	مواعيد	محمد صارم
10	موكب البط البري	علي الكردي
11	إسرائيل وحرب المياه القادمة	المحامي ظافر بن خضراء
12	على غفلة من يديك	هنادي زرقة
13	سيكلوجيةُ الحب والعلاقات الأسرية	سيرغي كوفالوف
14	دلمونيات	علي الجلاوي
15	قبلة في مهب النسيان	سوسن دهنيم
16	طقوس حافية	نجيب عوض
17	اللاجئون الفلسطينيون في سورية ولبنان	نبيل السهلي
18	الخديعة المرعبة	تيري ميسان
19	الجنرال	آلان سيلتو
20	العقلانية العملية	بيير بورديو
21	بابل والكتاب المقدس	جان بوتيرو
22	الرقص مع الذئاب	نك يانغ
23	البحث عن السيد جلجامش	محمد سيف
24	وعليك تتكئ الحياة	ممدوح عدوان
25	بيان ضد الأبارتايد	د .محمد حافظ يعقوب
26	القيمة والمعيار	يوسف سامي اليوسف
27	من دولة الإكراه إلى الديمقراطية	عماد شعيبي
28	القلم والسيف	إدوارد سعيد
29	بين الإسلام والغرب	مكسيم رودنسون
30	صعود وأفول فلسطين	نورمان ج. فنكلستين
31	ومض الأعماق	ت د .علي نجيب إبراهيم
32	رائحة الأنثى	أمين الزاوي
33	بؤس العالم (ثلاثة أجزاء)	بيير بورديو
34	المرأة في الإسلام	د . برهان زريق
35	الخيال والحرية	يوسف سامي اليوسف
36	ساعي البريد	ممدوح عدوان

37	الضغينة والهوى	فواز حداد
38	جنجر وفريد	فيدريكو فيلليني
39	التباس	ماهر منزلجي
40	الدُعابة المرة	محمد القيسي
41	محطات الانتظار	محمد توفيق
42	حوارات المنفيين	برتولد بريشت
43	بوح في المتاح	إلياس شوفاني
44	استمرارية التاريخ	عمانوئيل فاليرشتاين
45	باب الحيرة	أنيسة عبود
46	مقال في الرواية	يوسف سامي اليوسف
47	جماليات اللفظة	د . علي نجيب إبراهيم
48	عباس كياروستامي/فاكهة السينما الممنوعة	فجر يعقوب
49	متى يصبح الإنسان شجرة	د . ماهر منزلجي
50	شتاء البحر	غزالة درويش
51	زمن يحترق	غزالة درويش
52	عام مضى والانتفاضة تتجذر	تيسير قبعة
53	سورية واللاجئون الفلسطينيون	ظافر بن خضراء
54	كارل ماركس	سريست نبي
55	جزيرة الهدهد	صبري هاشم
56	همس / الجثة لا تسبح ضد التيار	يحيى علوان
57	أطياف الندى	صبري هاشم
58	التدريب على الرعب	خيري الذهبي
59	الحصار	مازن النقيب
60	نساء في الحرب	جواد الأسدي
61	فلامنكو البحث عن كارمن	جواد الأسدي
62	آلام ناهدة الرمّاح	جواد الأسدي
63	مداريات حزينة	كلود ليفي شتراوس
64	الكلمة الخرساء	جاك رنسيير
65	صفر واحد	رفيق عنيني
66	الريح والملح	الفارس الذهبي
67	الوجه السابع للنرد	فجر يعقوب
68	عالم مختلف	د . ماهر منزلجي
69	اليوم الأخير لبيت دمشقي	طه حسين حسن
70	الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار	بيير شونو
71	حنين العناصر	عائشة أرناؤوط
72	الاتجاهات النقدية الحديثة	عمر كوش
73	السياسة الأمريكية وصياغة العالم الجديد	د . عماد فوزي شعيبي
74	امرأة.. مرآتها صياد أعزل	فراس سليمان
75	مرايا الرماد	سهيل بدور
76	الغاوي	بهيجة مصري ادلبي

77	عشاق الدير	د . محمد الدروبي
78	حمار المسيح	ت. إسماعيل دبج
79	تراتيل القيثارة	محمد خميس
80	هيبياس الأكبر	أفلاطون
81	سمعت صوتاً هاتفاً	وليد إخلاصي
82	فيروز والفن الرحباني	محمد منصور
83	السينما الصهيونية شاشة للتضليل	محمد عبيدو
84	درامية التغيير	بروتولت بريشت
85	الليل	محمد ملص
86	الحقيقة والشريعة في الفكر الصوفي	د .عبد السلام نور الدين
87	تصفيق بيد واحدة	د . ماهر منزلجي
88	وعي السلوك	د . محمد الدروبي
89	تحولات السينما البديلة	عدنان مدانات
90	أرواح تائهة / القناع في الطباع	سمير طحان
91	رعشة المأساة «مقالات في أدب غسان كنفاني»	يوسف سامي اليوسف
92	التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول	بيير بورديو
93	النقد والمجتمع	فخري صالح
94	ذكريات ممنوعة	إيله شوحاط
95	عجوز البحيرة	تيسير خلف
96	الزهرة والحجر	ماهر اليوسفي
97	أشياء لا تُشترى	فتحية القلا
98	المرأة.. الحب والجنس	جبارة البرغوثي
99	هيك وهيك	عصام حسن
100	اقتسام العالم	كبير مصطفى عمي
101	أملاك المغاربة في فلسطين	ظافر بن خضراء
102	في فلسطين	أحمد اليماني
103	في دنيا الشتات	أحمد اليماني
104	في ميدان العمل التنظيمي (ج3)	أحمد اليماني
105	حركة القوميين العرب (ج4)	أحمد اليماني
106	منظمة التحرير الفلسطينية	أحمد اليماني
107	المرأة في إسرائيل	اسماعيل دبج
108	النار/التحليل النفسي لأحلام اليقظة	جاستون باشلار
109	أتباع الشيطان	جبارة البرغوثي
110	بينوني	كنوت هامسن
111	خان الحرير	نهاد سيريس
112	العين الثالثة	سمير طحان+أنطوان طحان
113	كتاب في الخوف	حكم البابا
114	الصندوق الأسود للديكتاتورية	محمد منصور
115	تلك الأيام	يوسف سامي اليوسف
116	حديث الكمأة	صبري هاشم

117	الجولان في مصادر التأريخ العربي	تيسير خلف
118	تجوال «رواية»	جان رولان
119	أيها القناع الصغير أعرفك جيداً	أوغستو مونتيروسو
120	معارك قيس وليلى	ت. غزوان الزركلي
121	فضيحة مدوية «رواية»	د. إياد ناجي
122	أخت وأخ «رواية»	أولا لينتسه
123	الحريدون والمجتمع والسياسية في إسرائيل	إيلان شاحر
124	على حافة الجنون «قصص قصيرة»	إسماعيل دبج
125	بنى النص ووظائفه	فاطمة ديلمي
126	طعم البنفسج الذي كان «شعر»	مديحة المرهش
127	عما قليل «شعر»	محمد أبو لبن
128	سلام على القصور / حرب على الأكواخ	فولكر براون
129	حكايا العالم القديم	الكسندر نيميروفسكي
130	الحيوان الباكي	ميشائيل كليبرغ
131	كازانوفا الرائع	فيليب سولير
132	الحب والأسرة عبر العصور	ت.د .نزار عيون السود
133	مقدمة كروميل – بيان الرومانتيكية	فيكتور هيغو
134	نفي العقل ج1 + ج2	أديب ديمتري
135	مجمع العمرين / سيرة موضوعية	سمير طحان
136	الموت نثراً	أكثم سليمان
137	قصر المحار	عدنان خضور
138	دروب الفرار	حفيظة قاره بيبان
139	أجواء عابثة	سامر سكيك
140	في غابة المرآة	ألبيرتو مانغل
141	أقودك إلى غيري	عائشة أرناؤوط
142	فلسطين الرمز والجوهر	ماهر اليوسفي
143	الإرهاب الغربي	روجيه غارودي
144	أزهار الجليل	إسرائيل شامير
145	موت	حسين ناصوري
146	لولا النهر والمرايا	ثامر مهدي
147	وهم السلام	أديب ديمتري
148	المطعون بشرفهم	وفيق يوسف
149	نجمة واحدة	سميح شقير
150	الحياة سابقاً	حسن عبد الرحمن
151	أصل الطيور	مجموعة مؤلفين إيطاليين
152	المسيح في الجولان	تيسير خلف
153	تاريخ الخليج العربي	جبارة البرغوثي
154	في عشق جيفارا	آنا ميناندس
155	الانقلاب الكبير	روجيه غارودي
156	الجنك	سمير طحان–أنطوان طحان

157	التعقيد	ت. د . فيصل دراج
158	مائة سوناتة حب	بابلو نيرودا
159	المشروع الحضاري العربي الإسلامي	د . برهان زريق
160	خلف الجدار	عبد الباقي يوسف
161	الباب المفتوح	بيتر بروك
162	محنة البيت القديم	د . محمد الدروبي
163	حكواتي، ليس إلا	د . محمد الدروبي
164	ماذا عن غد؟..	جاك دريدا
165	روزا	كنوت هامسن
166	الحنين	فيصل حوراني
167	كالبذور المنثورة	شوكت جميل دلّال
168	مصنع الأحلام	إيليا هرنبوغ
169	أصابع الموز	غسان الجباعي
170	لا العسل تشتهيه نفسي ولا النحل	سافو
171	منظومة الفنون الجميلة	آلان
172	كارل ماركس أو فكر العالم	جاك أتالي
173	امرأة واحدة	كمالا العتمة
174	انتحار عبيد العماني	أحمد الزبيدي
175	مداخل ومقدمات لنهضة متجددة	حسن إبراهيم أحمد
176	في السينما والتلفزيون «تأملات سينمائي»	قاسم حول
177	من وجد ديوان الوجد	خير الله سعيد
178	تاريخ اليهود وديانتهم	إسرائيل شاحاك
179	أيام آدم	علي جعفر العلاق
180	زمن الوقت	حسين ناصوري
181	اسئمات	علي الشاويش
182	الطفل البحري ثانية	إدريس علوش
183	أندلوثيا	أحمد تيناوي
184	تلك الأيام ج3	يوسف سامي اليوسف
185	التعليم اليهودي في إسرائيل وفي الولايات المتحدة	سفي أدار
186	هوركي.. أرض آشور	صبري هاشم
187	خطايا لاجئ	سليم البيك
188	رزنامة حلب / ذاكرة شعبية	سمير طحان – مروان طحان
189	الحياة خان	أمينة سفغي أوزدومار
190	البحث عن الزمن الحاضر «ديوان السيرة الذاتية»	هاشم شفيق
192	تأملات في الزمن الرديء «شعر»	زاهد المالح
193	حنّة	محمد الباردي
194	علاء الدين كوكش.. دراما التأسيس والتغيير	محمد منصور
195	بسام الملا.. عاشق البيئة الدمشقية!	محمد منصور
196	غسان جبري.. دراما التأصيل الفني	محمد منصور
197	موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين	إعداد تيسير خلف

198	قصر شمعايا «رواية»	علي الكردي
199	دانتيلا / أقل من الصحراء «نصوص»	بروين حبيب
200	زيارة إلى الآخرة	جبارة البرغوثي
201	محمود درويش ينهض «شعر»	إبراهيم الجرادي
202	كوميديا الغياب الدامية	حسين سرمك حسن
203	قبر بلا جثة «رواية»	سمير الزبن
204	تتناوبين على بريق المعدن «شعر»	حازم عبيدو
205	دراسات في الرواية والقصة والمسرح	سامي أحمد عطفة
206	مدارات وسجالات فكرية ونقدية	سامي أحمد عطفة
207	جسد للعبور «شعر»	سهيل شعبان بدّور
208	غزة في بطن الحوت	ناهض الريس
209	مجنون زينب	جمعة اللامي
210	عيون زينب	جمعة اللامي
211	مقام العاشقة «شعر»	دارين قصير
212	غواية الماء «رواية»	سامح كعوش
213	المنكسرة في مرآتها	باسم العتيبي
214	خذ الأرض «مسرحية»	صالح كرامة العامري
215	حاول مرة أخرى «مسرحية»	صالح كرامة العامري
216	حديقة آدم «نصوص»	يحيى البطاط
217	الفتاة الإيطالية «رواية»	آيريس موردوخ
218	الإسلام والحب	د. فريال مهنّا
219	اكتبني «قصص قصيرة»	فيفيان عيلبوني
220	خواطر حول السعادة	آلان
221	بان «رواية»	كنوت هامسن
222	المشروع الصهيوني من التاريخ الأوروبي إلى إعلان الدولة	محمد رشاد الشريف
223	الرومانسي الأخير	هلتون تمز
224	حكاية المنهج	برونو كليمون
225	المفتاح «رواية»	جونيشيرو تانيزاكي
226	الممانعة	إرنستو ساباتو
227	يد الحكيم «شعر»	إدريس علوش
228	نافذة على الحياة	د. سامر العطري
229	جمالية الخطاب الشعري عند بدوي الجبل	عصام شرتح
230	غيبوبة مدى الاغتراب	لميس أبو تمام
231	الرعب الاقتصادي	فيفيان فورستي
232	مقامات	يوسف صياصنة
233	مفتاح الريبة	سامح كعوش
234	الاتيكيت	د. سامر العطري